# مذكرات عبد العزيز القصاب

تأليف:

خالد عبد العزيز القصاب

# ثوب العرس الأول

رحل والدي عبد العزيز القصاب قبل أكثر من ثلاثين عاما، تاركا لي على مكتبه نسخة من ذكرياته التي طبعت عام 1962م، بعد أن أشبعها بخطه الجميل تقويما وتهذيبا، مضيفًا إليها فقرات وفصولاً في غاية الأهمية. وكانت هذه النسخة تتحداني لإعادة كتابتها في طبعة ثانية، فأمعنت في تحقيقها وتنسيقها وقرأت ما بين سطورها، وما إن أكملت واجبي حتى راودتني فكرة إضافة فصل عليها يعبر عن انطباعاتي عن شخصية والدي كما عرفتها عن كثب.

ورجعت أسبر غور طفولة ذاكرتي إلى سنين سبقت دخولي المدرسة. كنا نسكن في دار على ضفة دجلة لا تبعد عن الباب الشرقي إلا قليلا، ولا يفصلها عن حافة النهر إلاّ درب ضيق أصبح فيما بعد شارع المتعة والترف: (أبو نؤاس) كانت الدار محشورة في غابة كثيفة خضراء تخترقها سيقان النخيل الرشيقة. ولم يكن في جوارنا إلا دار أخرى هي دار عبد المحسن السعدون.

وفي هذه السنين الأُوَل لا تساعدني ذاكرتي الهشة إلاّ على استحضار يوم واحد غلب عليه الحزن والخوف ووالدي ينطلق مسرعا استجابة لاستغاثة زوجة السعدون، وانتحار رئيس الوزراء. وما إن رحل عبد المحسن حتى قرر والدي الرحيل إلى الضفة المقابلة من النهر. فشحننا مع متاعنا في (دوبة) كبيرة عبرت بنا الشط الى حيث استأجر دارا في كرادة مريم بيت بعمارة بغدادية رقيقة ذات شرفة طويلة، دهنت بلون شذري جميل. وكرادة مريم آنذاك لم تكن إلا غابات نخيل تتخللها بيوت متباعدة وآبار للسقي سميت بالكرود، وأصحابها سميوا بالكرادة.. وغلب على هذه الطبيعة الساحرة حركة صيادي السمك المستمرة، يبحرون بزوارقهم عند الفجر، تبعثر سكون الليل بإيقاعات صرير مجاديفها. ثم تنتشر الشباك عبر النهر، وترتجف الأسماك الفضية البراقة سجينة حبالها. ويرجع الصيادون عند المساء الى قريتهم الطينية قرب دارنا بزقاقها الضيق، الذي تنبعث منه رائحة السمك المقلي، وتغطيه شباك الصيد المعلقة من قمم النخيل لتجف قبل أن تستعمل مرة

أخرى في فجر يوم جديد.

كانت دجلة في تلك الأيام تعج بالحياة. مشاهد كثيرة علقت في ذهني، منها سباق للقفف بأعلامها البراقة نظمه نادي العلوية، وطائرات مائية تدور وترسو في النهر لتستقر أمام دار قائد القوة الجوية البريطانية على شاطئ (السنك). ومشاهد احتفالية أخرى تبلغ أوجها أيام الجمعة والسبت والأحد، عشرات الزوارق المحملة بحطب الطرفة والسمك تنساب على سطح الماء الى الجزر والجراديغ(1)في جنوب المدينة على أنغام الكمنجات البغدادية المشبعة بإيقاعات (الدنابك) صور وكأنها لوحة الكرنفال في فينسيا للفنان (كاناليتو) واذكر أيضا مهرجانا نهريا للملاهي والمسارح في الجزر الرملية وسط النهر في سنة 1932 دام ثلاثة أيام.

وما إن يأتي المساء حتى يضاء عقد طويل من الأنوار المتلألئة في شارع أبي نؤاس نسمع من (مقاهيه) أنغام أم كلثوم ينقلها لنا النسيم قوية مرة وضعيفة أخرى على سطح المياه المرتجفة. وكانت هذه المغريات تجذبني للعبور الى الصوب الآخر: صوب الملاهي

والمرح، لكن ذلك كان مرهونا بموافقة والدي، التي كان الحصول عليها أشق عليّ من الحصول على تأشيرات السفر. ولم أحظ بهذه الحرية الاّ عند دخولي كلية الطب.

كانت لوالدي شخصية صارمة أملت على حياتنا العائلية الالتزام والانتظام، نجتمع سوية على المائدة، ولكل كرسيه الخاص، نتحادث معا بصوت هادئ، ونعوض عن الضحك بابتسامات مؤدبة، إلا أن صرامته لم تحجبنا عن حبه حبا عميقا، ربما كان ذلك راجعا الى الكثير من العلامات الصغيرة التي تفصح عن حبه لنا، فما كانت صرامته المخيفة إلاّ قشرة صلبة تحيط بنفس مرهفة مشبعة بالحب لكل من حوله.

وحكايات حبه لأبنائه ورعايته لهم كثيرة، أذكر منها قصة واحدة ذات دلالات عميقة:

كنت، وأنا طالب في الصف الخامس الابتدائي، منغمرًا في أولى هواياتي الكثيرة وهي جمع الطوابع البريدية. كنت مغرما بأشكال الطوابع وألوانها، المعبرة عن المواقع والأجناس البشرية المتعددة، وكنت

أحلم في مجموعتي ليل نهار. وفي يوم مشؤوم من الأيام كلفني والدي بجلب وثائق مهمة محفوظة في غرفة شتوية في أعلى البيت. وما إن اطلعت على الطوابع الغالية وصور الملك فيصل وغازي عليها حتى انهارت عزيمتي، فانتزعتها جميعا من الوثائق عدا الوثيقة التي طلبها والدي. وفي وقت لاحق استدعاني أبي قائلا إن هناك من يشتري طوابع فما لديك منها؟، وعرضت عليه ما لديّ ببراءة الطفولة وطوابع فيصل وغازي بينها. واختفت الابتسامة من وجه والدي لتحل محلها علامات غضب شديد. وكنت وأنا أشاهده مزمجرا لا أشعر بالآمي، خائفا من أن أفقد والدي بنوبة قلبية. انتهت الزوبعة بصعود والدي الى الشرفة ليرمي بمجموعتي في قاع النهر لتقبر كما تستحق.

ومرت السنون وإذا بأبي يستدعيني وأنا طالب في كلية الطب، قائلاً إنه سمع بهواية أولاد أخي بجمع الطوابع فما رأيك بإعطاء هذه المجموعة لهم؟. نظرت الى يده الممدودة نحوي ولم أصدق عيني، لقد احتفظ بمجموعة طوابعي وهو في قمة غضبه عليّ ولم يكن

قد رماها الى قاع النهر. كان في ذلك لي قمة الحنان الأبوي.

وزاد في عجبي أيضا كيف تمكن أبي بثقافته العثمانية أن يؤمن بسنّة التطور ويجاري مسيرة أولاده في القرن العشرين. وهذه حكاية أخرى مع هوايتي الثانية: حبي للفنون التشكيلية. كان بيتنا بعيدا عن الفن، خاليا من أي ورقة أو علبة ألوان للرسم. وفي يوم من الأيام فتح أبي باب غرفتي بصورة مفاجئة، وكنت أحدق في تمثال صغير (لفينوس ميلو) لأرسمه. وبدت على وجهه علامات قلق وأغلق الباب بسرعة وكأنه قد فقد ابنه الى الأبد لعارية أغريقية.

وراقب والدي تطور هوايتي للفن واجتاز الهوة السحيقة التي كانت تقف بيننا، حتى وافق عام 1950 على طلبي لاستعمالي بيته الجديد على النهر، والذي بناه له، المهندس المعماري جعفرعلاوي، لافتتاح أول معرض لجماعة (الرواد) الذي دام لمدة ثلاثة أيام. معرض أصبح علامةً مهمةً ومنعطفا في تاريخ الفن العراقي الحديث.

وقف والدي بإعجاب بين لوحات فائق حسن وجواد سليم وأصدقائنا الآخرين، وبين المئات من الزائرين. والمعرض يعج برموز كثيرة لشباب أراد أن يغيّر كل شيء: أحذية تسلق جبال، فؤوس، أكواب معدنية موقعة معلقة فوق الموقد، ولوحات فنية تعلن عن ولادة حركة جديدة لرواد الطبيعة العراقية من الشمال الى الجنوب.

وفي هوايتي الأخرى، تذوق الموسيقى الكلاسيكية، وجدت نفسي هاربا منه، سجينا في غرفتي، أتصبب عرقا وأنا أتدرب على الكمان، غير متوقع أن يكتب لي والدي رسالة خاصة وأنا في لندن، كيف أنه اهتم بتنظيم مجموعة أسطواناتي بحنان ورفق.

راقبت أبي وأنا قابع في آخر مجلسه يوم الجمعة، فاغرًا فاهي، مستمعا الى ما يدور فيه من حوار. مجلس تغطيه العمائم الخضراء والبيضاء والسوداء، ورجال سياسة أفندية من مختلف المشارب والاتجاهات، شيوخ الجبال المتمنطقون بأحزمتهم العريضة، ورؤساء عشائر من رجالات ثورة العشرين، تجمعهم صداقات عميقة واحترام متبادل. صورتهم

تدل على انعدام التعصب الطائفي والعرقي وتفصح عن التسامح والانفتاح وتقبل الرأي لآخر. كان من جملة الساسة الحاضرين دائما: حكمت سليمان، وعلي جودت الأيوبي، ورشيد عالي الكيلاني. سياسيون لم تجمعهم مع والدي أي وزارة أو حزب سياسي. وفي الأعياد كان المجلس يضم رجال الطوائف الدينية الأخرى، ممثلة بالبطارقة بألوان ألبستهم البراقة وحتى الحاخاميين اليهود.

وفي رأيي أن والدي لم يكن سياسيا مغامرا طامعا بمواقع رئاسية. كنت أتذكر أياما متعددة ونحن نراقب تكليفه بمناصب وزارية أو رئاسية يقابلها بالرفض . وفي قناعتي أنه إداري بطبيعته... نجح الى حد بعيد في تحقيق العدالة ومكافحة الفساد في النواحي النائية من البلاد، وكذلك كسب ثقة الناس واحترامهم لدوره في استفتاءات انضمام لواء الموصل الى العراق.

وكان في مسيرته عموما يرفض أساليب العنف ويعارض تدخل الجيش في السياسة. وفي يوم حزين اغرورقت عيونه بالدموع عندما شاهد، وهو في شرفة

مجلس النواب، جموع الشباب تتساقط من الجسر تحت وابل رصاص الشرطة من المآذن على الصوبين، فاستقال من رئاسة المجلس مع النواب المعارضين لمعاهدة (بورتسموث) وأحرج الوزارة القائمة.

وأعجبت كذلك بمواقف الجبهات المتصارعة في الحلبة السياسية، وكيف كان ممكنا أن يتحاور مع ياسين الهاشمي وهو البديل المنتظر لوزارة المدفعي عام 1935، والتي كان والدي وزيرا للداخلية فيها، حوار غايته التفاهم في سبيل مصلحة البلاد العليا. وكذلك كيف كانت تدار في البلاط الملكي الاجتماعات التي ضمت رجال الأحزاب المعارضين مع المسئولين في الدولة في الظروف الصعبة، وربما كان والدي عنصر موازنة مهما في هذه الاجتماعات.

ومن جملة ما وجهته لنفسي من الأسئلة كيف كان أبي ينظر الى المرأة وحياته ارتبطت بأربع زوجات بصورة متعاقبة؟ مشاهداتي الكثيرة أقنعتني بحبه وإخلاصه ووفائه لهن. ففي زاوية من دارنا في كرادة مريم قبعت عجوز عمياء مقعدة في فراشها. كانت هذه العمياء المقعدة هي كل ما بقي من (مريم خان)

والدة زوجته الأولى نورية، التي كانت حبه الأول منذ أيام دراستة في اسطنبول، والتي شاء القدر أن تموت على كرسي مركب الأسنان في سامراء وهي حامل بطفلها الثاني، بعد أربعة سنوات فقط من زواجها. اعتنى والدي بـ(مريم خان) وفاء لزوجته حتى توفت بعد أربعين عامًا.

وتلاحقه المأساة الى زواجه الثاني ووفاة (صبيحة الجلبي) وطفليها في ظرف أسبوع فقط، ضحية لمرض الدفتريا الذي فتك في جموع المجاهدين في السماوة أثناء الحرب العالمية الأولى.

وعشت أنا حياتي مع أختيّ وأخي نفتقر الى حنان الأم، فقد توفت والدتي(شريفة ثابت) ضحية اختلاطات ولادة أخي الصغير (سعدون) بعد زواج دام خمس سنوات. وخالي هو(نوري ثابت)، صاحب جريدة (حبزبوز)، أراد الانتحار برمي نفسه من الشرفة لفقدانه حبيبته الأخت الشابة. وعجب (عبد المحسن السعدون) وهو في موكب تشييع والدتي أن يرى عبد العزيز يبكي زوجته، قال لـ(علي محمود الشيخ علي) هل من الممكن أن يبكي رجل أمام

الناس لفقدان زوجته؟
ولم تسلم من المآسي إلا زوجته الرابعة، (ماهية حويز) التي اعتنت بأبي في شيخوخته وتوفت بعده.
وفي صورة أخيرة رقد والدي على فراشه الأخير بعد أن أدركه تعب الحياة ومشاقها، وكنت مع إخوتي حوله وهو مربوط بشرايين الحياة الطبية من تغذية وقناني الأوكسجين. وأختاي جالستان على حافة سريره تقرآن له من سورة ياسين وهو يتلاشى في غيبوبة وهذيان، يصف لنا ما يتراءى له من صالة كبيرة في قصر منيف ينتظره، سقفها مرصع بزخارف جميلة.
ثم يصحو قليلا ليوقف تنفسه المتسارع وليصلح لإخوتي تلفظهم لكلمات من القرآن أخطأوا فيها، ثم يلتفت الى أخي الكبير عبد المجيد طالبا شيئا احتفظ به في غرفة نومه. وجلب أخي (صرة) ملفوفة فتحها أمامه. قال أبي : لا ليس هذا. فقد كان يبحث عن أوراق فيها وصيته بمنحة لجامعة بغداد.
ثم يتثاقل نفسه ويقف أخيرا، ومددت يدي لأجس نبضه بعد أن توقف. أجهشت بالبكاء قائلاً لنفسي:
لا... هذا ليس من الآلاف من مرضاي. لا... هذا أبي

وقد انتهى.

وقطعنا شرايين الحياة التي ربطته بالأجهزة المجاورة
وودعناه إلى الأبد، والتفتنا إلى الصّرة المفتوحة على
الأرض، وإذا بها ثوب عروسه الأولى الناصع
البياض.. احتفظ به ستين عاما...

خالد القصَّاب

## عليه توكلت وبه أستعين

الحمد لله رب العالمين، حمد الشاكرين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ا<لطاهرين.

وبعد، فإني أنا الراجي رحمة ربه، عبد العزيز بن السيد محمد بن السيد عبد اللطيف بن السيد محمد بن السيد حسين بن السيد علي بن ناصر بن الشيخ درع الجشعمي، طالما فكرت بضرورة تسجيل ذكرياتي وما صادفته في حياتي، وكنت أؤجل ذلك لضيق المجال وكثرة الأشغال. وبإلحاح من أفراد أسرتي، أخرجت الفكرة إلى حيز التنفيذ، بعد أن أيقنت أن الدنيا دار فناء، لا يبقى منها إلا ذكر الإنسان وصالح الأعمال، يتداولها الأجيال والأحفاد. وهاأنذا أبدأ متكلاً على الله جل جلاله، راجيًا ممن يقف على هفوة أو تقصير، إسدال ستار عفوه عليها. ولله العصمة وحده(1).

# القسم الأول
# الطفولة وأيام الدراسة في بغداد وإسطنبول

# الفصل الأول

## الطفولة والدراسة في بغداد

## السنوات الأُوَل

ولدت في بغداد سنة 1305 للهجرة، الموافق 1882 ميلادية في بيت معروف بالتقوى والكرم والصلاح، سمي ببيت (آل القصاب)· وسبب هذه التسمية أن جدنا الشيخ درع الجشعمي(1) قد سمّي بذلك عندما أقام مآدب وحفلات لختان أولاده، فنحرت الكثير من الأغنام والإبل، ودعي لها أهل راوه، فأطلقوا عليه اسم (القصاب)· والشيخ درع هو أول من نزل قرية راوه في أعالي الفرات وتزوج امرأة من سادتها، وكان معاصرا للشيخ رجب الراوي الكبير رحمه الله حوالي سنة 1656 ميلادية·

وأول من نزح من العائلة إلى بغداد، حفيده الشيخ حسين، الذي نزل في محلة سوق حماده في جانب الكرخ، وأخذ يتاجر بالأقمشة والحبوب والخيول والأغنام، وكان له عملاء في توابع بغداد، لا تزال تربطنا مع أبنائهم صداقةٌ متينةٌ مستمرة حتى اليوم· وأكبر إخوتي هو الحاج محمد رشيد، وكان إمامًا في جامع الشيخ صندل، وخطيبًا في جامع الشيخ معروف الكرخي، وهو من المتخصصين في علم الفقه،

ومن المنتسبين إلى الطريقة النقشبندية. توفي رحمه الله سنة 1929، ولم يعقب.

والأخ الثاني هو عباس حلمي، من علماء بغداد المعروفين، كان يلقي الدروس العلمية في مسجد المدني قرب دارنا صباحًا، وفي دار الفتوى بجانب الرصافة (وكان أمينًا لها)، ويدرّس أيضًا في جامع الشيخ صندل بجانب الكرخ بعد الظهر، وكل ذلك حسبة لله تعالى. ثم عين مدرسًا في كلية سامراء العلمية سنة 1898، وبقي فيها حتى وفاته سنة 1917 . وكان الشيخ عباس ورعًا تقيًا كريمًا، قرأ عليه الكثيرون من علماء العراق، ومنهم: الشيخ قاسم القيسي، والشيخ إبراهيم الراوي، والشيخ أمجد الزهاوي، والشيخ نجم الدين الواعظ، وعبد الملك الشواف، ومحمد سعيد الحديثي، وشهاب الدين الهيتي، وطه السامرائي، وحسن تقي الدين الدوري، وقد عمل الكثير منهم في التدريس والقضاء والإفتاء وشغلوا أهم المناصب العلمية الكبيرة.

أعقب السيد عباس ولدًا واحدًا هو السيد عبد الله وأربع بنات. وقبل إعطاء هذه الذكريات للطبع (عام

1962) فوجئنا بفقدان ابن أخي عن عمر لم يتجاوز الستين عامًا. ومما زاد في ألمنا أنه لم يخلف سوى ولد واحد هو غازي.

درس عبد الله عباس القصاب العلوم العربية في المدارس العلمية كما أراد والده. وبعد وفاة أبيه دخل كلية الحقوق وتخرج فيها سنة 1927، عين بعدها مديرًا لناحية الحيرة. ولنجاحه في إدارة هذه الناحية عين قائم مقام للسماوة، ثم مديرًا لقضايا العشائر في وزارة الداخلية، ثم متصرفًا للديوانية ومنها وزيرًا للداخلية، ثم متصرفًا للموصل، ثم أمينًا للعاصمة ، ثم مديرًا عامًا لجمعية التمور العراقية. وانتخب نائبًا عن المحمودية، وأخيرًا انتخب نائبًا لرئيس مجلس الاتحاد العربي(العراقي الأردني الهاشمي) سنة 1958.

وكان في هذه الوظائف مثلاً حسنًا لحسن السمعة والاستقامة والإخلاص حتى وافاه الأجل يوم الخميس 18 كانون الثاني 1962، عليه رحمة الله.

والأخ الثالث هو السيد عبد الرحمن، وكان يشتغل في التجارة وأصبح عضوًا في مجلس بلدية الكرخ. وقد تولى إدارة بيتنا ، مسترشدًا بأخيه الأكبر عباس.

توفي سنة 1910 وأعقب ابنة واحدة.

والأخ الرابع هو السيد أمين، وكان يساعد أخاه عبد الرحمن بأعماله التجارية. انتخب عضوًا في مجلس أمانة العاصمة قبل أن يتوفى سنة 1934، وأعقب ولدين وثلاث بنات.

والأخ الخامس هو عبد الفتاح، وكان مديرًا للمدارس الرسمية في العهد العثماني، استقال من منصبه عند دخول الإنكليز بغداد وانصرف بعد ذلك إلى الزراعة والبيع والشراء. توفي سنة 1935 وأعقب ثمانية أولاد(2).

## الشيخ عباس وطلابه

ومما أتذكره عن حماسة طلاب الشيخ عباس للاستفادة من دروسه، حكاية عن الشيخ أمجد الزهاوي:

طرق باب بيتنا في ليلة شتاء باردة، والمطر ينهمر بغزارة وأزقة بغداد تغمرها المياه والأطيان، وهو ملتفٌ بعباءةٍ ولابس (جزمة) في قدمه. صرخ أخي في وجهه قائلاً: (ماذا جاء بك من (الحيدر خانة) إلى (سوق حماده)؟)، أجابه أمجد: (عندي إشكال في درسي،

أرجو إيضاحه لي) قال له الشيخ عباس: (أخذت درسًا مني في جامع المدني صباحًا، ثم درسًا آخر في دار الفتوى في الرصافة بالقرب من دارك مساءً، أفلا يكفيك هذا؟) ثم أجلسه بجانبه يشرح له مشكلته قبل أن يدعه ينصرف في ظلام الليل البارد تحت زخات المطر.

## محل إقامتي

كنت وإخوتي المرحومون الخمسة نقيم في دار كبيرة من طابقين، شيدها والدنا في (سوق حماده)، وكان لكل منا غرفة أو غرفتان نقيم فيهما مع زوجاتنا وأطفالنا. كنا نتناول طعامنا معًا على سفرة (مائدة) واحدة. وفي الدار غرفة كبيرة لاستقبال زوارنا الكثيرين القادمين من كل حدب وصوب. وكان أخونا الأكبر محمد رشيد يشرف على نفقاتنا من مأكل ومشرب، وأخي عبد الرحمن يشرف على النفقات الأخرى.

واستمرت هذه الحالة إلى أن عيّنت قائم مقام لسامراء، وكان قد انتقل إليها قبلي أخي عباس للتدريس والإفتاء، لكننا لم نتوقف عن الاستمرار في

اجتماعاتنا العائلية في هذه الدار كلما رجعنا إلى بغداد.

ولما أصبحت وزيرًا للداخلية للمرة الأولى سنة 1926، انتقلت إلى دار عمي السيد إبراهيم الملاصقة لدارنا والواقعة على شارع موسى الكاظم. مكثت في هذه الدار سنتينانتقلت بعدها إلى (البتاوين) في جانب الرصافة، إلى دار على النهر، في المنطقة التي اخترقها شارع أبي نواس في وقت لاحق(3).

وفي سنة 1930 انتقلت إلى دار على الشاطئ الأيمن من دجلة، في منطقة (كرادة مريم). بقيت في هذه الدار حتى توفقت إلى تشييد أول دار امتلكتها على أرض قريبة مناسنة 1938، وهي الدار التي أسكنها حاليًا(4).

## كتّاب الملا الدولعي

عند بلوغي الخامسة من عمري، أدخلني والدي المرحوم في كتّاب الملا محمد أمين الدولعي لتعلم القراءة والكتابة. كان هناك في ذلك الوقت خمسة كتاتيب في جانب الكرخ، وعدد أكثر منها في جانب الرصافة، والكتّاب هذا هو أول مدرسة أنتمي إليها. كان الدولعي إمامًا للمسجد المسمى باسمه، ويقع في (سوق حماده). عاش هذا الرجل عمرًا طويلاً يقال إنه قارب مائةً وثلاثين عامًا. كان صالحًا، تقيًا، يصوم أيام السنة كلها ولا يفطر إلا في أيام الجمع والأعياد. كان قوي البنية وهو في عمر المائة. يدرس الطلاب عليه مبادئ القراءة، ويتعلمون الكتابة على صفائح (التَنَكْ) المعدنية الخفيفة، وإن أرادوا أن يمسحوا ما عليها، غسلوها بالماء أو لطعوها بألسنتهم ليتمكنوا من الكتابة عليها مرة أخرى.

كنت أذهب صباح كل يوم للكتّاب برفقة أخي عبد الفتاح. وفي أحد الأيام بينما كان الملا يقرئني الألف باء، أخطأت في قراءة الحروف، فقرص ظاهر يدي بإصبعيّ السبابة والوسطى، وشعرت بألمٍ شديدٍ

وكأنها قرصة آلة حديدية، وأجهشت بالبكاء. أخذ الملا يلاطفني ويمسح رأسي، ولما عجز عن إسكاتي، أمر أخي عبد الفتاح أن يأخذني إلى البيت. رجعت إلى أبي شاكيًا باكيًا، وطلبت منه أن لا يرسلني إلى هذا الملا مرة أخرى.

نفذ والدي طلبي، ونقلني إلى كتّاب الملا عبد الله السويدي بعد أن مرَ على دراستي شهران فقط، مع العلم أن الدولعي كان قد علم والدي وأعمامي وإخوتي القراءة والكتابة من قبلي.

كتّاب الملا عبد الله السويدي

درّس هذا الملا في مسجده المشهور في محلة (جامع عطا). وكان رحمه الله شديدًا صارمًا، لا يضاهيه في ذلك أحد. وطلابه لا يتجاوز عددهم الثمانين، يقبلهم من سن الخامسة أو السادسة وحتى الرابعة عشرة. وله نظام خاص ودوام يبدأ قبل طلوع الشمس وينتهي بعد صلاة العصر. كان يسقي تلاميذه، شتاءً وصيفًا، حليبًا أو شاي (دارسين). ومن يتأخر عن الدوام يضربه على قدمه ثلاث مرات بالعصا، ولديه (صلاّبة)(5) يشد عليها الطلاب المخالفين لتعاليمه من

أرجلهم. ومن جملة تعاليمه الغريبة، هو أن يعلن الطالب عن قدومه بوضع فمه في ثقب مفتاح الباب وينادي بصوت خافت مستمر طالبًا فتحه، ولا يسوغ له طرق الباب أبدًا، ومن يخالف ذلك يضرب. وكان يمنع الطلاب من البصاق على أرض المسجد، والمنع هذا يسري على المصلين جميعهم، شبابًا وشيبًا. ومن عاداته أيضًا أن لا يفتح أبواب المسجد للمصلين إلا بعد الأذان وفي وقت الصلاة فقط.

ويُقسّم الملا السويدي طلابه الكبار إلى كتل عمل متفرقة: فمنهم من يُكلف بإعداد الحليب والشاي، ومنهم من يكنس وينظف المسجد، ومنهم من يكلف بالأذان وإقامة الصلاة، ومنهم من يكلف بتعقب الطلبة الفارين من الكتّاب. وكان الملا يشارك طلابه في أعمالهم، وحتى في كنس أرض المسجد، على الرغم من كونه الإمام فيه.

ومما أتذكره ولن أنساه، هو أني أفقت ذات يومًا متأخرًا بعد طلوع الشمس، فبكيت خوفًا من القصاص، ورافقني أبي إلى الملا. همست في ثقب المفتاح كالعادة، ودخلت وأنا أتأبط كتابي وخلفي

أبي. استقبل الملا والدي مهللاً مرحبًا وقال أبي له: (هذا عبد العزيز، تأخر هذا اليوم، الله الله فيه)، ولاحظت أنه كان يشير إلى الملا بضربي. كنت أراقبهم وأنا أرتجف خوفًا ، وأخرج والدي من جيبه قطعةً من النقود تسمى( الجرخي) دسها في يده، وأعتقد أنها تساوي عشرين قرشًا آنذاك، سلمها إليه وخرج.

وما إن أغلق الملا الباب خلف والدي حتى التفت إليّ وخاطبني: (لماذا جئت بوالدك؟ هل ليشفع لك؟ تعالوا مدّوه!) قام أحد الطلبة الكبار بوضع قدمي في (الفلقة)(6) وضربني الملا ثلاث خيزرانات عقابًا لتأخري، وبعد هذا العقاب لم أتأخر عن موعد الدراسة أبدًا.

وأتذكر أيضا حادثةً أخرى عند هذا الملا: كنت أتعلم حروف الهجاء وكان (الخلفة)(7) المكلف بتعليمي هو توفيق الحسن الخانجي، جارنا في سوق حماده، وهو من تجار بغداد اليوم. وكان يلفظ حرف السين بلكنته المعروفة، فضحكت. كنت على بعد عشرة أمتار من الملا إلا أنه سمعني، فتوجه إليّ والعصا في يده وأخذ

يضربني بقسوة. كان في آخر طارمة المسجد رجل مسن من أبناء الثمانين، اسمه سيد مويل العاني، وهو مرافق الطالب عيسى العطا. قام هذا الرجل وألقى بجسمه فوقي ليقيني من ضرب الملا الشديد قائلا له: (قتلت ابن السيد محمد يا ظالم)

كان الملا عبد الله السويدي رحمة الله عليه تقيًا، نشطًا، قانعًا وحريصًا على تربية الأولاد وتعليمهم. كان أسمر اللون، رفيع الصوت، ذا لحية كوساء. ينتسب أبوه إلى عائلة السويدي وأمه سودانية. وقد تعلمت عنده القراءة والقليل من الكتابة، وختمت القرآن بعد بقائي معه خمسة شهور لم أعاقب أثناءها إلا في المرتين اللتين ذكرتهما.

وعندما ختمت القرآن الكريم، أقيمت لي حفلة الختام المعتادة وتسمى (زفة الختمة)، والعادة في هذه الزفة أن يخرج الطلاب جميعهم إلى زقاق المحلة يتقدمهم أحدهم حاملاً (الرَحْلة)(8) على رأسه، وهي مزينة بالبراقع والورود الملونة، وعلى (الرَحْلة)

المصحفالشريف. وفي الصف الثاني، يسير الطالب الخاتم محاطًا بثلاثة أولاد، يقرؤون دعاء الختمة ومن

خلفهم يردد بقية الأولاد، كما يلي:

المتقدمون: الله ينصر السلطان…

المرددون: آمين…

المتقدمون: بجاه سيد الأكوان …

المرددون: آمين …

المتقدمون: يا رب الدين والأيمان، أدم دولة بني عثمان··

الهي بالنبي جرجيس، أجرنا من جنود إبليس، بأهل الذكر والتقديس ·· أدم دولة بني عثمان… إلهي انصر أفندينا، الحاكم بالعدل فينا، أدمه يا عظيم الشأن…

المرددون: آمين… الحمد لله الذي تحمدا، حمدًا كثيرًا ليس يحصى عددا، وأنزل القرآن نورًا وهدى، على النبي محمدا…

## في المدرسة الابتدائية

توفي والدي وأنا في السابعة من عمري، وقام بتربيتي إخوتي الكبار رشيد وعباس وعبد الرحمن، فأدخلوني المدرسة الابتدائية وهي أول مراحل الدراسة الحكومية.

كان في جانب الكرخ مدرسة ابتدائية واحدة تقع بالقرب من المستشفى الذي بناه مدحة باشا(9).

انتميت إلى هذه المدرسة بعد أن ختمت القرآن ثلاث مرات. كان مدير المدرسة آنذاك، عمر أفندي فارس الجبوري، وهو من أهل العلم. درست في هذه المدرسة سنة واحدة تعلمت فيها مبادئ القراءة التركية، والتحقت بعدها بالمدرسة الرشدية.

في المدرسة الرشدية

تقع هذه المدرسة في محلة (جديد حسن باشا) في جانب الرصافة، في موقع متصرفية لواء بغداد. وفي السنة الأولى لم أتمكن من النجاح لعدم تمكني من قراءة الكتب التركية كما هو مطلوب، وبعدها توالى نجاحي من صف إلى آخر حتى تخرجت فيها بعد أربع سنوات. كان المتخرجون معي رشيد الخوجة

وابن عمه شاكر الخوجة، ورؤوف الكبيسي، وفؤاد الجيبه جي، وتلميذ آخر من أصل تركي.
كانت المدرسة الرشدية هي الوحيدة في بغداد، وما أذكره عن أحد معلميها الأفاضل واسمه عبد الله أفندي، مدرس العربية والفارسية والعلوم الدينية، قسوته الشديدة. يضرب الطلاب بعصاه إن لم يحفظوا دروسهم، ويطلب منهم جمع أصابعهم وهي محتقنة ببرد الشتاء القارس ليضربها بعصاه ثلاث مرات وهو يردد (هذه العصا من الجنة، وسوف تترحمون على أبي وأمي) عانيت من هذا العقاب مرةً واحدةً فقط في درس القواعد الفارسية. وفضل هذا الأستاذ لا ينسى في تعليمي الواجبات الدينية وحسن السلوك والأخلاق، رحمه الله رحمة واسعة.
كانت دروسنا في الرشدية هي: الحساب والجغرافية والهندسة والعلوم الدينية واللغة العربية والفارسية والفرنسية وحسن الخط. والجدول اليومي يتضمن أربعة دروس، اثنين منها صباحًا واثنين بعد الظهر، مع فاصل خمس عشرة دقيقة بين درس وآخر، وساعة ونصف لفترة الغداء بين الدروس الصباحية ودروس

بعد الظهر. وكان الطلاب يستغلون هذه الفرص في التسامر والتعليق على الدروس ومعلميها، وفي مراجعة واجباتهم.

وفي العطلة الصيفية انتميت إلى مدرسة المرحوم علي أفندي الخوجه الأهلية، بناءً على رغبة أخي عباس لتعلم اللغة التركية.

## في المدرسة الإعدادية

دخلت هذه المدرسة بعد تخرجي من المدرسة الرشدية، وهي ذات سبعة صفوف، وقُبلتُ في الصف الرابع منها.

كان مدير الإعدادية، رجلاً تركيًا ذا أخلاق متينة وسيرة حسنة، واسمه تحسين، ومن المدرسين من كان من الضباط أو الأطباء العسكريين، أذكر منهم القائم مقام(10) صبري بك، والضابط خالد بك سليمان، وقسم آخر من خريجي المدرسة الملكية في الأستانة(11): كنائل بك، ومحمد علي الجلبي، وشوكة بك، والدكتور عرفان بك، وجميل خياط، وعلي أفندي الخوجة، وعبد الله جميل، والسيد يحيى الوتري وغيرهم. والظاهر أن الحكومة العثمانية قد اهتمت

بمستوى هذه المدرسة باعتبارها الوحيدة في بغداد، فخصصت لها هؤلاء الأساتذة المتميزين.

وأول من تخرج في هذه المدرسة سبعة، أحدهم مسلم واسمه صالح محمد، والستة الباقون من اليهود، وهم: إبراهيم حيبم، ومنشي، وداود سمره، وموشي، وسلمان ونعيم زلخه. وفي السنة الثانية تخرج ثلاثة طلاب فقط، هم: ناجي السويدي، والأخوان اليهوديان منشي ويوسف. وفي السنة الثالثة تخرج اثنان فقط هما: أنا وزميلي صديق مظهر. وبعد ذلك أخذ المتخرجون يتزايدون على مر السنين.

دروسنا في الإعدادية كانت الحساب والجبر والعلوم الدينية والفيزياء والكيمياء والهندسة والحيوان والنبات والمعادن والماكنة والمثلثات والتاريخ واللغة الفرنسية وحسن الخط والرسم. كان جدول الدروس يبدأ من الثامنة صباحا وينتهي في الثالثة بعد الظهر، ويتضمن درسين صباحا ودرسين بعد الظهر كما في المدرسة الرشدية.

إصراري على إكمال دراستي في إسطنبول

بعد أن قضيت في بغداد ، حياة طفولة وصبا سعيدةً

جدًا ، صرت أتطلع لإكمال دراستي في إسطنبول، وكان رفيقي في الدراسة صديق مظهر يتطلع إلى ذلك أيضًا.

وعند تخرجي، فاتحت إخوتي برغبتي في السفر، فرفضوا ذلك طالبين مني أخذ مسلك آبائي وإخوتي في تحصيل العلوم الدينية والعربية في بغداد.

وأبديت إصرارًا عنيدًا على السفر حتى وإن تطلب مني ذلك الذهاب إلى إسطنبول مشيًا على الأقدام، وأضربت عن الطعام وعن الاجتماع بإخوتي وانزويت في غرفتي، وكان لذلك وقع كبير على أهلي فأخذوا يتداولون في ما عساهم فاعلون.

قام أخي عبد الرحمن (أبو صبيحة) يراسل أخي عباس (أبا عبد الله) في سامراء، يشرح له حالي ويؤيد رغبتي في السفر. وأخذ أخي الأكبر رشيد يستخير الله في هذه المعضلة.

طرق سمعي في أحد الأيام حديث لعبد الرحمن مع أفراد من العائلة، قائلاً لهم: (لقد استخرت الله في قضية عبد العزيز الليلة البارحة، ورأيته في المنام وهو يصعد منبرا ، وبعد صعوده أربع درجات، نزل منه وهو

يحمل صندوقًا صغيرًا ناولني إياه) وقالت النسوة من أهل البيت: إن فلانة وفلانة ذهبا إلى جامع الست نفيسة، فجاء (الترام) متوجهًا إلى الكاظمية وخلفه رجل يركض مسرعا، وبعد جهدٍ لحق به، وهذا في عرفهم أن الفأل حسن وأن عبد العزيز سيلحق بقافلة السفر حتمًا.

فرحت كثيرًا بسماع حديث العائلة وتفاؤلها، وقويَ أملي في السفر، وتشجعت على الاستمرار في إضرابي. وبعد ثلاثة أيام طرق بابنا ساعي البريد وفي يده كتاب من أخي عباس. انتظرت أخي عبد الرحمن وهو يقرأ الرسالة حتى أكملها، ثم التفت إلي يداعبني ضاحكًا وقال: (هيا البس ملابسك ورافقني للسوق لأجهز لك حاجيات السفر)

وغمرتني هذه الكلمات بسعادة لا تنسى.

# الفصل الثاني

## الدراسة في إسطنبول

## قافلة الرحيل

تعاقد أخي مع (المكاري([1])) حسين الركاع والمكاري المدعو (مسكين) وعكام([2]). تضمنت القافلة أربعة عشر حصانًا وحمارًا واحدًا. خصص حصان لركوبي مع رفيقي صديق مظهر في محمل خاص متكون من حوضين مربعين من الخشب لا تغطيه مظلة، وهو يشبه المحفة إلا أنه أصغر منها حجمًا. ورافقنا في القافلة تاجر إيراني وصيدلي، كما صاحبنا المرحوم الحاج مصطفى آغا، والد رفيقي صديق، راكبًا فرسه الأصيلة. وخُصِصَتْ خمسٌ من الدواب لحمل أمتعتنا، والبقية منها لنقل بضائع تجارية إلى حلب.

ودعنا الأهل والأصدقاء يوم السبت 16 حزيران 1901، وتحركت القافلة بنا، متوكلين على الله، إلى حلب. رافقنا في بداية الرحلة أخي عبد الرحمن، والحاج عبد الوهابالقشطيني، وأصدقاء من محلتنا كالسيد رؤوف عبد الفتاح، ومحمود القطان وغيرهم، راكبين خيولهم حتى منطقة (الوشاش)([3])، وبقي أخي السيد أمين مرافقًا لنا حتى الرمادي.

وصلنا إلى نقطة (أبو منيصير)([4]) عند منتصف

الليل، وفيها أول منزل على الطريق· أنزلت القافلة حمولتها وفرش لنا العكام وأحضر عشاءنا· وعند ذاك فقط استولى علي الندم وأخذت أفكر بوالدتي وإخوتي وعائلتي· كانت هذه أول مرة أترك بها بغداد في سفرة طويلة شاقة، معانيًا من محمل غير مريح أركبه لأول مرة· بكيت بصمت في ظلام الليل ، حذرًا من أن يسمع بكائي أحد، خاشيًا من أن يشعر أخي أمين بحالي فيرجعني إلى بغداد· وأخذت أمد يدي إلى الطعام من غير أن أتناول منه شيئًا، خوفًا من أن يعرف أفراد القافلة بأمري·

وعندما انبثق الفجر، عاودنا المسير، ووصلنا إلى (الفلوجة)(5) ظهرًا· كان الطقس حارًا والشمس محرقة· وكان لنا هناك ابن عم اسمه محمد سعيد العبد الكريم، رحمه الله، ومعارف آخرون من جانب الكرخ، أبدوا عجبهم لسفري وأنا صغير السن، وأخذوا يلومون إخوتي· أجابهم أخي أمين: بأن سفري قد تم بناء على طلبي وإصراري، وأنه وعائلتي جميعها لم تتمكنوا من إقناعي بالعدول عن قراري· كنت في قرارة نفسي أرى كثيرا من الصواب في

رأيهم، إلا أني تحاشيت بحث هذا الموضوع خشية أن يقرر أخي إرجاعي إلى بغداد.

تركت القافلة (الفلوجة) عصرًا، وقضينا ليلة في الموقع المسمى (رايات)، وبعدها مكثنا في (الرمادي)(6) يومين كما هي عادة القوافل. وعند التهيؤ للرحيل، أخذ أخي أمين يودعني قبل أن يقفل راجعًا إلى بغداد؛ فلم أتمكن من السيطرة على شعوري وأجهشت بالبكاء، فأخذ أخي يشجعني على الاستمرار ويؤيد فكرة سفري، متمنيًا لي الخير والنجاح والعودة سالمًا.

سارت القافلة على بركة الله وأنا مغموم حزين أبكي على فراق الأهل، وأخذ المكاري (مسكين) زمام حصاني وأخذ يسليني ويواسيني. قال لي: إنه من محلة (الجعيفر) ويعرف أهلي وأقاربي جميعا، وإنه سيقوم بخدمتي وتسليتي عوضًا عنهم، وسوف لن يتركني فريسةً للحزن والألم. أثر فيّ كلامه هذا وأزال الخوف عني، وأخذت أتمتع بكلامه وحكاياته وغنائه العذب وهو يترنم بـ (العتابات)(7) وأنساني الأهل والخلان.

كانت القافلة تتحرك عصرًا قبل غروب الشمس، توقيًا من حرارة النهار، وتحط رحالها بعد شروقها بقليل، فيقوم العكام بنصب الخيمة ومد البسط والأفرشة والوسائد لننام حتى الظهيرة، حين نجد طعامنا جاهزًا. كانت هذه هي وجبتنا الوحيدة، هي الغداء والعشاء معًا، هذا إذا استثنينا ما نتناوله من اللوز والفستق والزبيب أثناء سير القافلة.

وفي الطريق، كان الحاج مصطفى آغا يرعانا بعنايته ويغمرنا بعطفه، ويشرف على طعامنا ويشجعنا على المطالعة أثناء راحتنا بعد الغداء، استعدادًا لامتحانات القبول في إسطنبول.

كانت للحاج مصطفى فرسٌ جميلة تتقدمنا في المسير، أراد تقديمها هديةً للسلطان عبد الحميد، غير أنه لم يوفق في نقلها على الباخرة وتركها في الإسكندرونة. كانت هذه الفرس شرسة عنيدة لا يتمكن غيره من ركوبها، وطالما ضاق بها ذرعًا وأشهر مسدسه ليرميها، فأسرع إليه لأمنعه من ذلك.

كان رفيقي في المحمل(صديق) أكبر مني سنا، وأثقل وزنًا، وكان العكام يضع في الجانب الذي أنا فيه

وسائدَ إضافيةً حفظًا للتوازن، وكان إذا نام رفيقي، اختل التوازن، فنسقط كلانا على الأرض مع محملنا، وكل منا يلوم الآخر على حركة غير اعتيادية قام بها. وفي بعض الأحيان كنت أتعب من ركوب المحمل، فأترك محلي ليركب الحاج مصطفى مع ولده وأرافق القافلة ماشيًا.

استغرقت سفرتنا إلى حلب، أربعة وعشرين يومًا، نسير ليلاً ونرتاح نهارا. قضينا يومين منها في كل من الرمادي ودير الزور، لراحتنا ولراحة حيواناتنا وللتزود بالمؤونة.

والسفرة بمجملها كانت شاقة متعبة وممتعة في آنٍ واحد، أكسبتنا خبرة فريدة ومفيدة.

## في حلب

وصلنا حلب صباح يوم 7 تموز 1901، ونزلت في إحدى خاناتها لعدم وجود فنادق فيها آنذاك. وذهبت إلى السيد محمد شريف المقيد، صديق أخي عبد الرحمن، وهو من التجار. عرفته بنفسي فرحب بي ورافقني لشراء ألبسة من أحد المخازن، واخترت لي منها بذلة إفرنجية كانت أول ما اقتنيت منها في

حياتي. أبدلت بها ألبستي البغدادية التقليدية من زبون وجبّة وطربوش.

مكثنا في حلب يومين، ثم غادرناها مسرعين على ظهور الخيل إلى الأسكندرونة، سالكين الطريق الجبلي الوعر بغية اللحاق بالباخرة التي ستبحر بنا من هناك إلى إسطنبول. وفي حلب ودعت المكاري (مسكين) وكلي ألم لفراقه بعد أن سلاني طول الطريق وخفف عني فراق أهلي وإخوتي.

وصلنا الاسكندرونة بعد يوم ونصف، بتنا ليلة واحدة منها في (ميلان) على رأس جبل الاسكندرونة. نزل رفاقي في أحد فنادق المدينة، ونزلت أنا في بيت لعملاء أخي عبد الرحمن من التجار المقيمين فيها.

كان الجو حارًا رطبًا، وكان علينا الانتظار ثلاثة أيام قبل الإبحار إلى إسطنبول. وتركنا الاسكندرونة على متن باخرة تجارية، توقفت بعد إبحارنا في جزر: (المني)(8) و(مدللي)(9) و(ساقز)(10) و(كريت) وجزر أخرى، ولم نصل إلى إسطنبول إلا بعد تسعة أيام، في 18 تموز 1901. استغرقت سفرتنا منذ تركنا بغداد، ستةً وثلاثين يومًا.

## أيامـي الأول فـي عـاصمة الخـلافة

تركت الباخرة وتوجهت مع رفاقي إلى فندق في( جمبرلي طاش)(11)، وفي صباح اليوم التالي أخذت أسأل عن مسكن خالي السيد سليمان أفندي (المفتي الاي)(12)، المقيم إجباريًا في إسطنبول بأمر من السلطان عبد الحميد.

طلبت من زميلي في الدراسة الإعدادية، اليهودي شاؤول جامجي، أن يدلني عن كيفية الوصول إلى دار خالي في محلة الخاصكي، فأجابني: بأنه يريد ليرة ذهبية أدفعها له مقدمًا قبل أن يلبي طلبي. قلت له: إن كل ما معي هو صك بعشر ليرات، فطلب مني أن أصرف الصك أولاً، واصطحبني إلى البنك في محلة (السركجي)(13) على بعد خمسة عشر ميلاً. تسلم الليرة قبل أن يرشدني إلى الترام، طالبًا مني البقاء فيه إلى آخر الخط. ركبت الترام وحيدًا وكلي أسفُ لتصرف هذا اليهودي الذي زاملني في الدراسة ثلاث سنوات.

وفي الترام لاحظت أن بطاقات الركاب متعددة الألوان، وصرت أتابع الركاب الحاملين اللون المطابق

لبطاقتي لأنزل معهم، ومنعني الجابي مرتين من النزول حتى وصلنا محطة (آق سراي)(14) في آخر الخط. وعند وصولي أخذت أسأل أولاً عن محلة (خاص كوي)، وضحك مني كل من سألتهم، وقال لي أحدهم: (ولدي، إن خاص كوي هي خارج إسطنبول ولعلك تسأل عن محلة الخاصكي؟)، وأشار إلي باتجاهها ، ومشيت خمس عشرة دقيقة حتى دلني صاحب مقهى على دار خالي.

طرقت الباب وفتحته لي طفلة صغيرة بعمر عشر سنوات، أخبرتها باسمي فأسرعت إلى داخل البيت، وخرج علي شيخ بثياب النوم، سألني: (هل أنت عبد العزيز؟) قلت: (نعم) أخذ يقبلني وأنا أقبل يده، وعاتبني لعدم إرسال برقية من الاسكندرونة ليكون مع أصحابه في استقبالي في الميناء، واعتذرت له عن جهلي. ثم لبس ثيابه وأسرع معي بعربة إلى الفندق الذي نزلت فيه، وعاد بي وبحاجياتي، وخصص لي غرفة في الطابق العلوي من داره.

وفي أيامي الأولى في إسطنبول وصلتني رسالة من أخي عبد الرحمن، أنشر نصها كمخطوطة ملحقة في

آخر هذا الكتاب، وتتضمن نصائح قيمة هي نموذج في أصالة الفكر وحسن الخط. ولي هدفان من نشرها: الأول: لفت أنظار أبنائي وأحفادي إلى ما ورد فيها من الوصايا السامية والتوجيهات القيمة. والثاني: رسم صورة قلمية لشخصية أخي عبد الرحمن الفريدة، وما كان عليه من نبل القصد ونباهة الإرشاد.(15)

## خالي المفتي سليمان الجبوري

كان السيد سليمان أفندي الجبوري(16) عالمًا تقيًا، درس العلم في بغداد وتفقه فيها. دخل الجيش إمامًا وترفع إلى رتبة (مفتي الآي)، وتنقل مع الجيش بين بغداد وكركوك والسليمانية والموصل.

كانت الموصل آنذاك تسودها فتن واضطرابات يثيرها المتنفذون ورجال العشائر الكردية واليزيدية. وعينت الحكومة الفريق طاهر باشا، واليًا وقائدًا فيها، وكلفته بالإصلاح والتأديب. اعتز الباشا بالسيد سليمان وقربه وجعله مستشارًا له ومرشدًا للناس. وقاما معًا بتحقيق العدالة ومعاقبة المفسدين، مؤكدين على تصميم الإدارة على تنفيذ الإصلاحات العامة بحزم،

واستتب الأمن. إلا أن ذلك لم يرق للعابثين الذين أخذوا يتربصون بهما الفرص للانتقام منهما.
وحانت لهم الفرصة عندما خطب السيد سليمان أفندي في يوم العيد في جامع نبي الله شيت عليه السلام، وبعد أن دعا للسلطان عبد الحميد، أثنى على إصلاحات الباشا الوالي ودعا له بالتوفيق والنجاح. استفاد الخصوم من ذلك، فطيروا البرقيات إلى الباب العالي(17) محتجين على ذكر الخطيب اسم الوالي مقرونًا باسم السلطان. وعلى أثر ذلك، صدرت الإرادة السلطانية بعزل الباشا من منصبه، وأخذ السيد سليمان أفندي مخفورًا إلى إسطنبول حيث حوكم هناك. وقد استغرقت محاكمته سنتين، كانت نتيجتها أن أحيل على التقاعد وفرضت عليه الإقامة الإجبارية في إسطنبول، التي بقي فيها حتى وفاته. أما الوالي طاهر باشا، فقد استغرقت محاكمته مدةً طويلةً أيضًا وأحيل بعدها على التقاعد. وسليمان أفندي من العلماء النشطين، كان خطيبًا جريئًا يحبه الأتراك عامة وأهالي الأناضول خاصةً. إذا ما دخل الجامع حمله المعجبون على الأكتاف إلى

المنبر. وعند انتهاء خطبته انهالوا عليه يقبلون يديه يتباركون بها. وفي خطبه لا تأخذه في الحق لومة لائم، غير مبالٍ بالسلطة السياسية وبعيون السلطان عبد الحميد التي كانت تترصده وتحصي عليه أنفاسه.

كنت أستمع إلى خطبه وهو ينتقد الأمراء والوزراء، متطرقًا إلى سوء الإدارة والسياسة بلا محاباة أو مجاملة، وأشرت عليه بالاعتدال وتجنب ذكر السلطان. كان يّرد علي: بأنه لا يخاف عبد الحميد ولا غيره من رجال الحكم، وأن السلطان لا يتمكن من نفيه من إسطنبول إلى خارجها، فإن أراد نفيه إلى سوريا تخوف من إثارته الناس لطلب الإصلاح والانفصال عن الدولة. وسوف لن ينفيه إلى اليمن أو (الروم ايلي) (18) لأن الفتن والقلاقل مستعرة فيهما ولا يريد أن يزيد الطين بلة. والأناضول(19) منطقة آمنة وديعة، فلن ينفيه إليها تفاديًا لأن يوجِد معارضةً فيها. وأما العراق، فقد سبق وأن أُبعد عنه تفاديًا للمطالبه بالعدالة والانفصال عن الدولة. كان يقول لي: (لا تخف علي يا ولدي فإن قبري سيكون هنا في

إسطنبول ولن أخرج منها حيًا) وهكذا كان، فقد بقي فيها حتى فارق الحياة ودفن في مقبرة (يدي قلة) غريبًا مظلومًا، عن عمر ناهز المائة سنة.

كان السيد سليمان رحمه الله عصبي المزاج، شديد المراس، سريع الغضب، محبًا للجدل، خطيبًا مفوهًا ومحترما لا يجاريه في ذلك أحد من زمانه، مقنعًا بأحاديثه ووعظه.

وعندما كنت في داره، كانت له ثلاث زوجات: إحداهن مريم خان آل كمال زاده، المعروفين في كركوك، وهي أم البنات. والثانية مقبولة خانم ابنة حامد أفندي الآلوسي، من العائلة المعروفة بالعلم والصلاح والمؤلفات الدينية، ولم يكن لها أولاد. وكانت له زوجة ثالثة في بغداد، خلفت له ثلاثة أولاد، هم: المرحوم محمد سعيد أفندي الذي اشتهر بالعلم، وكان قاضيًا ومفتيًا في خانقين ثم مدرسًا في سامراء، وكان محبوبًا من الذين يحضرون حلقاته الدراسية ووعظه، والابن الثاني هو الملا نصر الله، وكان إمامًا في الشطرة، والثالث هو عبد الرحمن الذي التحق بأبيه في إسطنبول ومات فيها أيضًا.

## (التقديم إلى المدرسة الملكية الشاهانية([20]

بعد أن استقر بي المقام في دار خالي، صرت أدرس باستمرار استعدادًا لامتحان قبول المدرسة الملكية، وقدمت أوراقي إلى نظيم بك، معاون المدير، الذي سجل اسمي وأعلمني بموعد الامتحان ومواده، وهي: الطبيعيات والرياضيات واللغة الفرنسية. وعندما قدمت الامتحان مع رفيقي صديق مظهر، أخفقنا كلانا، والسبب هو أننا لم ندرس المثلثات والماكنة، اللتين كانتا تدرسان في الصف السابع في الإعدادية. وعند ترفعنا لهذا الصف، تغير منهج الدراسة وأصبحت تدرس في الصف السادس فحرمنا منها. وكنا قد راجعنا مديرية معارف بغداد ونظارة([21]) المعارف، طالبين تدريسنا هذه المواد، ولم يلب طلبنا. كما شرحنا هذه الأسباب في أوراق امتحاناتنا من غير جدوى. وهكذا حرمنا من الدخول في المدرسة الملكية تلك السنة، وأخذنا نبحث عن كلية بديلة مناسبة.

## دخـولـي كلية الطب

أشير عليّ أن أدخل كلية الطب، وقبلت فيها في 30 أيلول 1901، وكانت آنذاك في محلة (قادرغة)(22). داومت فيها سنة كاملة، درست فيها: الكيمياء والفيزياء والنبات والحيوان وعلم طبقات الأرض بصورة مفصلة، أحببت منها درس الكيمياء أكثر من غيره. نجحت آخر السنة إلى الصف الثاني، ومع ذلك فضلت التقديم مرة أخرى إلى المدرسة الملكية الشاهانية لأن الدراسة فيها ثلاث سنوات وفي الطبية خمس. وسعيت حثيثًا هذه المرة لامتحان القبول، وتمكنت من الانتساب إلى المدرسة الملكية الشاهانية في السنة الثانية من وصولي إسطنبول.

## في المدرسة الملكية الشاهانية

التحقت في هذه الكلية في آب 1902 وتخرجت فيها في تموز 1905 أي بعد ثلاث سنوات.

كان النظام في هذه المدرسة دقيقًا وقاسيًا للغاية، والرقابة على الطلبة شديدة، فلا يمكن للطالب دخول الصف والخروج منه كما يشاء، بل بنظام عسكري صارم، ولا يمكنه التغيب بلا وثيقة من والده، كما لا

يسمح له بإدخال الصحف والمجلات إلى المدرسة، وإذا ما شوهدت معه يعاقب بأشد العقاب.

ورئيس المراقبين كان (روميًا)(23)، وهو مكلف بإعطاء درجة في الأخلاق والسلوك، وبمراقبة الطلاب بدقة في الأروقة والحديقة والمطعم، وكانوا يخافونه أكثر من خوفهم من المدير والأساتذة.

والمواد التي تدرس، هي: الإدارة والحقوق الدولية والأصول المالية والفقه والمجلة وعلم التفسير والكلام وقانون الأراضي والتاريخ العثماني واللغة الفرنسية وترجمتها وحسن الأخلاق.

كان الأساتذة من العلماء الممتازين في فروعهم، منهم: أستاذ التاريخ عبد الرحمن شرف، الذي أصبح فيما بعد رئيسًا لمجلس الأعيان التركي، وعلي حيدر أفندي، أستاذ المجلة وشارحها، وإسماعيل حقي أفندي، أستاذ التفسير وعلم الكلام وصاحب المؤلفات العديدة، ومصطفى نائل، أستاذ الأصول المالية والاقتصاد، وكان ناظرًا للمالية، ومصطفى ذهني، أستاذ الفقه وعضو مجلس المعارف الكبير، وهو من مشاهير المؤلفين.

واستفدت من إرشادات أساتذتي وعلمهم وحسن أخلاقهم رحمهم الله جميعا رحمة واسعة.

## رفاقي في الدراسة

كان عدد تلاميذ الصف الأول في الكلية ستة وأربعين تلميذًا، أخص بالذكر منهم: عبد القادر بن الشيخ ظافر، وأسعد البيروتي، اللذين جمعتني بهما صداقة متينة ورفقة عزيزة في المذاكرة والتحضير للامتحانات طيلة أيام الدراسة، وعرفت عنهما السيرة الطيبة والأخلاق العالية، وتفرقنا مع الأسف بعد التخرج إلا أننا أدمنا المراسلات بيننا حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى.

كان عبد القادر ملازمًا لوالده الشيخ ظافر، رئيس التكية الشاذلية، الواقعة قرب سراي (يلدز)، وعند وفاة والده اختير أستاذًا للغة العربية في جامعة كامبردج في إنكلترا، وعند بلوغه سن التقاعد عاد إلى إسطنبول وتوفي فيها صيف عام 1954 مأسوفا عليه، رحمه الله رحمة واسعة.

وعند تخرج رفيقي الثاني أسعد البيروتي عُيِّن مأمورًا بمعيّة ولاية الشام. وبعد احتلال الفرنسيين لها نقل

إلى بيروت واختارته الدولة المحتلة وزيرًا لداخلية لبنان، ثم علمت فيما بعد أنه اغتيل لأسباب لم أعرفها ، رحمه الله رحمة واسعة.

كنت خلال مدة دراستي أبتعد عن مرافقة الزملاء الذين لا تروق لي سيرتهم، وأتجنب الملاهي والمحلات المشبوهة، أراجع دروسي وأسجل محاضراتي، ساهرًا كل يوم حتى الثالثة صباحًا ، كما إني لم أتغيب يومًا واحدًا مدة دراستي جميعها.

## انتقالي من دار الخال

كانت دار خالي في محلة (الخاصكي) بعيدة عن كليتي التي تقع على شارع (ديوان يولي)(24)، خلف مقبرة السلطان محمود. وكان علي أن أمشي خمس عشرة دقيقةً في الصباح الباكر حتى أصل محطة الترام، ثم من هناك نصف ساعة أخرى إلى الكلية، وأرجع متعبًا عند نهاية الدوام ، هذا إضافةً لما يكلفني هذا التنقل من مصاريف.

ومن جهة أخرى، كان الخال رحمه الله يطالع كثيرًا حتى ساعة متأخرة من الليل، ويطلب مني الجلوس أمامه لأستمع إلى نصائحه وحكاياته وما صادفه من

حوادث في حياته، فيغلب علي النعاس وأنام أمامه، وعندئذ فقط يأذن لي بالانصراف. وبالطبع، كان ذلك يؤثر على دراستي كثيرا ويؤخرني عن مراجعة المحاضرات وتنفيذ الواجبات التي تفرضها الدراسة عليّ.

وبعد أن أقمت في داره سنة واحدة، رجوته أن يسمح لي بالمغادرة والإقامة في دار قريبة من كليتي، وشرحت له صعوبة تنقلي وتعرضي للبرد القارس والثلوج. كذلك أبديت له رغبتي في الزواج من ابنته الكبرى (نورية) لتتعهدني وترعاني في مسكني الجديد.

وبعد دراسة هذا الموضوع من جميع الوجوه، وافق على طلبي وعقدنا الزواج، وأخذت زوجتي ووالدتها (مريم خان) وأختها الصغيرة (نجيبة) إلى دار في محلة (لاللي)(25) بشارع (إسطنبول جشمة سي). كانت هذه الدار تطلّ على بحر مرمره و(قوم قبو)(26) من جهة، وعلى حديقة غناء لدار كبيرة من جهة أخرى، كانت مسكناً للمهاجرين من بلغاريا، وعلى بابها لوحة كبيرة من الرخام نقش عليها عبارة (فيها

كتب قديمة) دلت على أنها كانت مكتبة عامة سابقًا.
بقيت في هذه الدار سنتين ونصفا ولم أتركها حتى رجوعي إلى بغداد.

محاولة لاغتيال السلطان

طلبت من صديقي عبد القادر أن يأخذني لمشاهدة المراسيم التي تجرى للسلطان عبد الحميد أيام الجمع في الجامع القريب من قصر (يلدز)(27).
ودار عبد القادر قريبة من الجامع، وهو يعرف الطرق المؤدية إليه بصورة جيدة. وعند تخرجي أعدت الطلب كي لا تفوتني فرصتي الأخيرة لمشاهدة هذه المراسيم قبل أن أغادر إسطنبول. انتظرت عبد القادر، يوم 31 تموز 1905، ليأخذني للمراسيم من غير جدوى، فأديت صلاة الجمعة وحدي في جامع (جمبرلي طاش)، وتناولت بعدها الطعام في مطعم إيراني قريب ثم ذهبت إلى مقهى (آهزك) كعادتي.
وفي المقهى شعرت بجو غريب والناس يتبادلون الهمسات والإشارات. ولما أردت استجلاء الأمر جاءني القهواتي، إسماعيل الإزميرلي، وأسّر إليَّ بأن قنبلةً قد ألقيت في (يلدز) بعد الصلاة، شتتت موكب

السلطان والحرس الملازم له وأدت إلى ضحايا كبيرة لا يُعرف عددها بعد. وأسرعت إلى بيتي حذرا ومتفاديًا رجال الأمن المنتشرين في كل مكان.
وفي صباح اليوم التالي ذهبت للمقهى نفسه لأطلع على الأخبار، فوجدت تفاصيل الحدث تتصدر واجهات الصحف وتبشر بسلامة السلطان وتثني على شجاعته. ومما نشر: أن حاشية السلطان طلبت منه التريث عند الخروج من الجامع إلاّ أنه أصّر وقال: (لن يصيبنا إلاّ ما كتب الله لنا) وفي حكاية أخرى: أن السلطان قد تحدث إلى جمال الدين، شيخ الإسلام، وأطال كلامه نصف دقيقة أكثر من المعتاد. ولم يكد عبد الحميد يضع قدمه على عتبة العربة حتى دوى انفجار مرّوع اهتزت له أرجاء (يلدز)، فبسط الموت ظلاله على ساحة المراسيم وانتشر دخان كثيف وتناثرت الأشلاء البشرية والحيوانية هنا وهناك، وتحطم زجاج نوافذ الأبنية المجاورة، واستولى الرعب على السلطان وحاشيته. وعندما انقشعت سحابة الدخان كان المنظر رهيبًا ومخيفًا ومؤلمًا، وعربة السلطان محاطة بمئات الجنود الشاهرين سيوفهم

وكأنهم في عرض لرواية مفجعة.
ذكرت الجرائد التركية أن الانفجار قد نكب ثمانين عائلة وأربعمائة شخص. قتل من الأهالي والجنود ستة وعشرون وجرح ثمانية وخمسون، كما قتل اثنا عشر رجلاً من الشخصيات التركية البارزة، ومات الكثير منهم بتمزق القلب من شدة الانفجار، وقتل كذلك سبعون من الخيول، ودمرت اثنتان وثلاثون عربة.
قالت جريدة (الطان) الباريسية: إن القنبلة كانت تزن خمسة عشر كيلو غرامًا. ووصف مراسل صحيفة (فرانكفورتز سايتونغ) الألمانية هذا الحادث بقوله: (لو تأخر انفجار القنبلة نصف دقيقة لقتل السلطان وأولاده وحاشيته جميعًا)، وأن الانفجار قد وقع على بعد خمسين مترًا من عربة السلطان. وقال النائب الإيطالي (ايرللودوا): (لقد حضرت تجربة المدافع الثقيلة مرارًا ولم أسمع صوت انفجار قوي كهذا الانفجار)

## من كان وراء المؤامرة

شك عبد الحميد أولاً في وليّ عهده رشاد فسجنه في قصر (جراغان)(28)، واحتج هذا وهدد بالاستعانة بالدول الأجنبية.

وعزت بعض الصحف هذا الحدث إلى عداء الأرمن الشديد للسلطان ، وبصورة خاصة أعضاء الحزب الأرمني القومي (ناشنا تسيون)(29).

لم يستطع المحققون الكشف عن المؤامرة في بادئ الأمر، حتى احتجزوا أرتالاً من الشباب الأرمني كان من بينهم (زوريس) البلجيكي، رفيق (كريستابور) زعيم الحزب، وتمكنوا من انتزاع اعتراف منه باشتراكه في المؤامرة، إلا أنه لم يعترف باشتراك غيره إلا الذين قتلوا في الحادث. وكان المتآمرون قد خططوا قبل ذلك لاغتيال عبد الحميد داخل قصر (يلدز)، إلا أن ذلك كان مستحيلاً لوجود احتياطات أمنية كبيرة حوله.

دخل (كريستابور ميكائليان) إلى إسطنبول بجواز سفر ألماني مزور وباسم مستعار هو (صاموئيل فاين)، وبصحبة شخص اسمه (زوريس) مع سيدة

تدعى (روبينا)، ورجل ألماني وآخر يوناني، وكلهم حاملون هويات مزورة وبهيئات تنم على ترف وجاه، وكأنهم من الشخصيات الدبلوماسية الأجنبية البارزة. كانوا يدخلون ساحة المراسيم في (يلدز) كل جمعة ليدرسوا تفاصيل المراسيم، من خروج السلطان من القصر وركوبه العربة حتى صلاته في الجامع والرجوع منه. وفات على رجال الشرطة الاشتباه بهم وهم بملابسهم الأنيقة وعرباتهم الضخمة وهوياتهم المزورة.

فرّ (كريستابور) ورفاقه إلى (غلطة سراي)(30) وأبحروا بباخرة كانوا قد حجزوا عليها مسبقا تحركت بهم إلى أوربا بعد ساعتين فقط من الانفجار.

نجاتي في حادثة ( يلدز)

بينما كنت جالسًا في المقهى في اليوم التالي ليوم الانفجار، جاءني عبد القادر ظافر وأسعد البيروتي يهنئاني على سلامتي. قالوا: إنهما حضرا إلى المقهى يوم الخميس ليدعواني يوم الجمعة لتناول الغداء في دار عبد القادر، ولمشاهدة موكب السلطان بعد ذلك من محل قريب فلم يجداني، وتركا لي بطاقة

الدعوة عند القهواتي إسماعيل، ثم انتظراني للغداء حتى يئسا من حضوري، فاكتفيا بتناول الطعام ولم يخرجا لمشاهدة الموكب لأنهما سبق وأن شاهداه مرارًا. فلو كنت قد تسلمت الدعوة لوقفنا جميعًا نشاهد الموكب من محل قريب من الانفجار.

وجاءني القهواتي مهرولاً معتذرًا عن نسيانه تقديم بطاقة الدعوة لي، وحمدنا الله على سلامتنا جميعًا.

## الأيام الأخيرة في إسطنبول

تخرجت في المدرسة الملكية الشاهانية، في أول تموز 1905، وقدمت طلبًا لتعييني بمعية ولاية بغداد.

أجابني محاسب الوزارة، وكان كريم العين، بعدم وجود شاغر في الملاك. وبعد أربعة أيام من تقديم طلبي فهمت من رئيس الفراشين(31) أن القضية تتطلب بذلاً! وقال: عليك أن تأخذ إحدى الرتب السنية من الدرجة الثالثة أو الثانية، وأنه مستعد لمساعدتي مقابل خمسين ليرة. أجبته: (إني قررت وعاهدت نفسي منذ كنت طالبًا في المدرسة أن لا أرشي ولا أرتشي، ولا أسمح لأحد أن يرتشي بواسطتي، وإني لست بحاجة لهذه الرتب) واستهزأ بي الفراش قائلاً:

(انتظر دورك إذًا)

وفي يوم آخر، دخلت على المحاسب من غير علم الفراش، وبينت له أني عراقي مرت عليّ أربع سنوات ونصف وأنا بعيد عن أهلي وبلادي، وأرغب في العودة إليها الآن. قال: (توجد لدينا وظيفة معّية تشغر في (قسطموني)(32) بعد خمسة أشهر فهل تقبلها؟)، قلت: (نعم)، وأخذ يحرر الكتاب الرسمي مشترطًا عليّ أن أرسل له من بغداد مسبحة من نوع (درنجف) وعباءة نسائية من الصنع المحلي، طلب ذلك مازجًا الجد بالهزل.

وعند تقديم مسودة الكتاب إلى مدير الحسابات، طلبني للدخول إليه وأجلسني أمامه، وأخذ يسألني عن بغداد مركز الأولياء الصالحين وسرته معلوماتي كثيرًا. كان المدير هذا ذا لحية طويلة وعمره ينوف على ستين عاما، وعندما قرأ الكتاب أرسل على المحاسب الأعور فدخل عليه بتأدب زائد، وصاح بوجهه قائلاً: (لدينا شاغرٌ في ولاية (أدرنه)(33) فلماذا لا تعطيها لهذا البغدادي وتعده بوظيفة في (قسطموني) بعد خمسة أشهر؟) أخذ المحاسب يتذلل ويتعذر، ثم أمره،

قائلاً (خذ هذه المسودة وأبدلها بوظيفة (أدرنه) الشاغرة، وانقل الملاك منها إلى بغداد)
لم تمض عشر دقائق حتى وِقع الكتاب وطلب مني المدير أن لا أنساه في الدعاء في العتبات المقدسة، وفي مرقد الشيخ عبد القادر الكيلاني، ولم يطلب مني شيئًا غير ذلك، وشكرته على معروفه هذا. علمت بعدئذ أنه كان (دفتر دارًا)(34) سابقًا في بغداد.
والتقيته مرة أخرى عند رئيس الكتّاب في النظارة، وأخذني إلى غرفة تتوسطها منضدةٌ كبيرة عليها الكتب المقدسة الثلاثة، وعلى جدرانها لوحات كبيرة كتب عليها آيات قرآنية وأحاديث نبوية في معنى الأمانة والعدل والصدق والاستقامة. أعطاني لوحة صغيرة كتب عليها القَسَم الرسمي. قرأت القَسَم وأنا أرتجف من هول الموقف، وعند انتهائي أخذ يهنئني بوظيفتي الجديدة، ثم قدمني إلى الناظر ممدوح باشا الذي أخذ يرشدني إلى العدل والاستقامة والعمل الحسن، ووقع كتاب تعييني أمامي وبارك لي.
كان تأريخ الكتاب11 آب 1905، ورقمه 77 والوزير موقع عليه تحت عبارة (هم نام شده ممدوح) وخرجت

من الوزارة فرحًا مسرورًا.

وقبل مغادرتي إسطنبول، طلبت من نظارة المعارف الموافقة على قيامي بالتدريس في الإعدادية في بغداد في مادة الكيمياء أو غيرها، إضافةً لواجباتي في المعية، وتركت إسطنبول قبل انتظار الجواب.

## وداعًا لإسطنبول

صعدت الباخرة (حاجي) صباح الجمعة 19 آب 1905، وهي راسية في مرفأ (سركجي) مستصحبًا زوجتي ووالدتها، والخال سليمان أفندي يقبلنا ويكفكف دموعه، وتحركت بنا ببطء حتى تلاشت إسطنبول الجميلة تدريجيًا خلف الأفق البعيد.

## انطباعاتي عن إسطنبول<

>كانت المدينة في عهد السلطان عبد الحميد واسعة كبيرة، شيد معظمها على تلال مرتفعة تشرف من الجنوب على بحر مرمرة ومن الشرق على مضيق البوسفور، الذي يصل البحر الأبيض بالبحر الأسود. ويقع القسم الأكبر من المدينة في قارة أوربا والقسم الأصغر في آسيا. يتفرع من مضيق البوسفور خليج ضيق كالنهر يسمى (القرن الذهبي) يقسم الجانب الأوربي إلى قسمين: أحدهما إسطنبول القديمة، موقع الدوائر الرئيسية في الإمبراطورية العثمانية، وهو القسم المحصور بين القرن الذهبي والبوسفور وبحر مرمرة، والقسم الثاني وهو الأكبر، يقابل الساحل الغربي لشبه جزيرة الأناضول.

تظهر المدينة للزائر بجمال رائع، فموقعها الجغرافي الفريد وأثارها الخالدة وقباب جوامعها الزرق المحاطة بمنائرها المدببة، ترك في ذاكرتي صورة خلابة لم يرق إليها أي انطباع عن المدن الكثيرة التي رأيتها في حياتي.

>يخترق المدينة القديمة (ديوان يولي) شارعها الرئيس

المزدحم ليلاً ونهارًا ، وعليه تقع أهم الأبنية الحكومية: كبناية (الصدارة العظمى) أي: رئاسة الوزراء، ووزارات الخارجية والداخلية والعدلية والمعارف والمالية والأوقاف و(سر عسكر) أي: الحربية ومجلس شورى الدولة والمدارس الرسمية الكبيرة.

>بلغ عدد نفوس إسطنبول في عهد عبد الحميد عام 1901 مليوني نسمة، لأنها عاصمة الخلافة الإسلامية، يؤمها الناس من جميع أرجاء الدولة العثمانية الشاسعة: كالعراق وسوريا وفلسطين ولبنان والحجاز واليمن وليبيا والروم ايلي وولايات الأناضول. وشوارع إسطنبول تعج بالناس، تغطي العمائم البيض معظم رؤوسهم، ويعتمر الـ(فيس) أي: الطربوش الأحمر رؤوس الآخرين من الذين يلبسون (البنطلون). والحجاب عام عند النساء المسلمات، ويرتدين (الإزار) المسمى (جرجف)، والمتكون من قطعتين: العليا تستر الرأس حتى الخصر ويسمى (بله رين) والسفلى، وهي الأكبر، وتسمى (أتك).

>والنساء يلزمن بيوتهن لا يتركنها إلا لقضاء الأعمال الضرورية أو للتنزه في الأيام الخاصة والأعياد، حيث

يخرجن جماعات جماعات بتظاهرة ملفتة للنظر، وهن بـ(جراجفهن) الجذابة، حاملات (الشماسي) أي: المظلات الملونة فوق رؤوسهن لتقيهن أشعة الشمس. ولباس المرأة في بيتها بسيط جدًا لا يتعدى الـ(ايتاري) أي: الـ(دشداشة) أو الجلباب، ويغطي البعض رؤوسهن بطرحة تسمى (يشماغ) مصنوعة في الغالب من الخام الشفاف البراق (تلبند).

>كان في عاصمة الخلافة ما يقرب من مائة ألف من طلاب العلوم الدينية والفقهية والتطبيقية، هذا غير الطلاب المنتسبين للمدارس العسكرية والملكية. وأكثرهم موزعون على الأقسام الداخلية في المراكز الدينية لا يغادرونها إلا في أيام الجمع والأعياد. وتعقد الحلقات الدراسية عادةً في الجوامع الكبيرة، كجامع الفاتح والسليمانية وبايزيد وغيرهما. ويقوم طلاب المدارس الدينية بالتدريس والوعظ في الأقضية والقرى أثناء عطلتهم في شهر رجب وشعبان ورمضان من كل سنة.

>كان السلطان عبد الحميد يرعى الجوامع والتكايا والمدارس الدينية بصفته خليفة المسلمين، أتته الخلافة

من السلطان العثماني سليم الأول(35)، الذي تنازل له الخليفة محمد المتوكل على الله الثالث آخر الخلفاء العباسيين في مصر سنة 1517م.

<والحياة في إسطنبول كانت مترفة، فالمواد الغذائية من خضراوات وغيرها متوافرة، ترد إليها من الضواحي ومن الدول المجاورة، والأهلون يتمتعون بعيش رغد، والأسواق تحتوي على كل ما يلزم الناس من مأكل ومشرب وملبس ولوازم بيتية، وهي تتنقل من منطقة إلى أخرى كل يوم. هذا إضافة إلى الباعة المتجولين على البيوت.

<وكانت الشوارع تنار بالغاز السائل (هواء غازي)، والمياه توزع على مخازن خاصة في محلات السكن، ينقل منها السقاة الماء إلى البيوت. والناس تتنقل بالترام الذي تجره الخيول، وينتقل البعض الآخر منهم بالعربات أو على ظهور الخيول المطهمة أو الحمير والبغال. ولعبور القرن الذهبي كان هناك جسران، أحدهما حديدي والآخر خشبي قديم، يدفع من يعبر عليهما رسمًا قدره ربع القرش الصاغ.

<ودور إسطنبول مشيدة من الأخشاب على هياكل

من حجر، تخوفًا من الزلازل المتكررة التي دمرت الكثير من بيوتها وعماراتها. والدور الخشبية معرضة للحرائق الكبيرة التي كانت تلتهم المحلات الواحدة تلو الأخرى، وتكاد لا تنقطع، وقد خصص لمكافحتها فرق متطوعين من الأهالي مع عربة تحمل مضخة ماء يدوية. وكان من المألوف أن ترى هذه الفرق تركض في الشوارع والأزقة وهي تصرخ (يانغون وار - يانغون وار) أي: يوجد حريق، يوجد حريق. وفي الليل يلوحون بفوانيسهم (الفنار) في الهواء محذرين الناس، طالبين منهم المشاركة في عمليات الإسعاف وإخماد النار.

<وفي مجال الترفيه، لم يكن في عام 1901 سوى (تياترو) أي: مسرح شرقي واحد، ومسرح للتمثيل، وآخر خاص بـ (القره قوز) أي: الدمى.

اهتمت الحكومة العثمانية آنذاك بتحقيق الأمن والاستقرار، فنشرت رجال أمنها وعيونها في كل موقع للمحافظة عليهما. وما إن بدأ القرن الحالي حتى تدهورت الأحوال السياسية العامة فأخذت تنذر بالخطر، واشتدت معارضة رجال حزب الاتحاد

والترقي لحكم السلطان عبد الحميد، ثم هرب معظم أعضاء الحزب إلى فرنسا ومصر تفاديًا للتعقيب والمراقبة. وهناك الأرمن أيضًا المعادون للسلطان، هذا بالإضافة إلى العلاقات المتوترة مع الدول المجاورة، وبصورة خاصة دول البلقان كاليونان وبلغاريا.

<ولم يرق للسلطان وحاشيته زحف القوات التركية المرابطة في سالونيك على إسطنبول عام 1908، وفرضها الدستور والمجلس النيابي عليه. كانت سالونيك في ذلك الوقت مقرًا لحزب الاستقلال، ولليهود (الدونمه) تأثير كبير عليه. وقد تم خلع السلطان في السنة التالية، عام 1909، وحل محله السلطان محمد رشاد، أخوه وولي عهده.

## إسطنبول بعد خمسة وأربعين عاما<

<فوجئت عند زيارتي الثانية لإسطنبول عام 1946 بالتغيرات الكبيرة التي طرأت عليها منذ أيام دراستي فيها. فقد انخفض عدد السكان من المليونين إلى نصف المليون بعد انتقال العاصمة إلى أنقرة. وخلا شارعها الرئيس (ديوان يولي) من بنايات الوزارات والدوائر الحكومية المهمة.

>لمست أثناء زيارتي، تقديس القسم الأعظم من الأتراك لزعيمهم مصطفى كمال وترحمهم عليه. ورأيت أن الحق معهم، فالرجل قد أنقذ البلاد من المستعمرين الأجانب، وقاد بكفاءة الجيوش التركية وقوات المقاومة وحرر تركيا من الجيوش الإنكليزية والفرنسية واليونانية، التي كانت قد احتلت إسطنبول وإزمير وإزميد وبورصة واطنة وماردين وقونيه ومناطق كثيرة أخرى. قاتل الأتراك بقيادته الفذة بعزم وثبات لا يوصفان، وحققوا النصر على الرغم من تفوق القوات المحتلة بالأسلحة والذخائر، وقاتل الجندي التركي وهو لا يحمل غير حربة أو حتى إن كان أعزلَ من السلاح، وتكبدت القوات اليونانية بصورة خاصة خسائر فادحة وانسحبت من ازمير وازميد عام 1923، فتمكن مصطفى كمال من تأسيس جمهورية فتية عصرية مستقلة.

>وبعد خمسة وأربعين عاما كانت مظاهر التقدم واضحة للعيان في حياة السكان وفي العمران. فالشوارع تنار بالكهرباء، والماء يوزع بالأنابيب للبيوت، والجسور الضخمة تمر فوق القرن الذهبي

وفوق مضيق البوسفور لتربط أوربا بآسيا، وتغير أسلوب بناء الدور من الأخشاب إلى الطابوق والأسمنت، فقلت بذلك الحرائق.

<اتجهت تركيا الحديثة نحو الغرب، فاختفت العمائم البيض وأبدلت بالقبعات، ولم أرَ عمامة واحدة، حيث مُنِع استعمالها رسميًا إلا للأئمة عند وجودهم داخل المسجد وأثناء قيامهم بالصلاة فقط.

<أحيل الجامع الكبير (آيا صوفيا)(<36) إلى متحف، وهو في الأصل كاتدرائية بناها القيصر (جوستانيان) سنة 527-565م، وكانت جدرانها مزينة بالصور والأيقونات. وعندما فتح محمد الثاني القسطنطينية عام 1453 غطاها بالجص وأحالها إلى جامع.

<وفي عهد أتا تورك، أبدلت الكتابة التركية من الحروف العربية إلى الحروف اللاتينية، وكان لذلك أثر سلبي أدى إلى ابتعاد الأتراك عن تراثهم الثقافي، وأهملت الكثير من الكتب القيمة المدونة بالخط العربي ولم تجد من يقرؤها، وبيع أكثرها في أسواق القاهرة والعواصم العربية الأخرى بأثمان زهيدة لا تزيد على

ثمن الورق الذي كتبت عليه.

<واختفى كذلك الحجاب، ما عدا قي القرى النائية، وأصبحت النساء سافرات، وأصبح من المعتاد رؤيتهن يشاركن الرجال في المسابح على الساحل، بعد أن كانت لهن مسابح خاصة معزولة في العهد العثماني.

<وليس غريبًا أن يكون هناك الكثير من الناس في تركيا الحديثة ممن استهجنوا هذا الاتجاه الغربي ولم يستوعبوه والتزموا بتراثهم القديم.

# القسم الثاني
# الخدمات الإدارية في العهد العثماني

# الفصل الثالث

## العودة إلى بغداد

### الطريق إلى حلب

تركت إسطنبول على ظهر الباخرة (حاجي)، وكان في الغرفة المجاورة لغرفتي رجل أفغاني الأصل روسي التبعية اسمه، الحاج أحمد. وكان طويل القامة، كبير الهامة، محبًا للمزاح، ويبدو أنه في الستين من عمره. عرفت منه أنه من تجار السجاد والشاي المعروفين.

وفي أحد الأيام، وبينما كنت في الممر الخارجي للباخرة أتوضأ استعدادًا لصلاة الصبح، دفعني أحد اليهود الأسبان، وكان منهم الكثير في الباخرة، وضربته فصرخ بلغته الإسبانية وتجمهر رفاقه حولي وحملوا عليّ، وقبل أن يمسوني انتبه الحاج أحمد وهجم عليهم يضربهم بذات اليمين والشمال ونكل بهم تنكيلاً. وقد بلغ الغضب منه حدًا مخيفًا خشيت عواقبه عليه فأخذت أهدئه وأسترضيه، وساعدني على ذلك ربان الباخرة.

وعند وصولنا أزمير، شكا الحاج أحمد من ألم في

أسنانه فأخذته إلى الساحل. أرشدنا أحد الدلالين إلى طبيب كان من خيرة أطباء البلدة. استقبلنا هذا بحرارة وأدخلنا غرفة عملياته وكانت ممتازة لم أر مثلها في إسطنبول. قرر الطبيب قلع سنّين وتنظيف الباقية من المواد السود المتراكمة عليها نتيجة لكثرة الشاي الذي يشربه الحاج أكثر من الماء. طلب الطبيب أربعة (مجيديات)(1) ثمناً لأتعابه، ووافق الحاج على ذلك. وعندما أنهى الطبيب عمله بنجاح، قلت لصاحبي: (ادفع الأجور وهيا بنا)، وإذا به يمتنع عن الدفع ويجيبني بالتركية ما معناه: (هم أسنان ماكو، هم أربعة مجيديات!) قلت له: (هذا يخالف ما اتفقنا عليه وهذا عيب علينا) لم يأبه الحاج لقولي واستمر في رفضه، فلم أجد حلاً إلا أن أدفع الأجور عوضًا عنه. وتركنا العيادة والحاج يصيح ويكرر بصوت عال: (أسنان ماكو، أربعة مجيديات ماكو)، وشعرت بالخجل أمام الناس وحاولت إسكاته والابتعاد عنه.

وعند وصولنا الباخرة، دخلنا غرفته فدفع لي المجيديات الأربعة، وقال: إنه كان يمازحني. ثم

سألني إن كان من الممكن مساعدته في رفع إحدى حقائبه ووضعها على الرف. حاولت ذلك ولم أتمكن من رفعها لثقلها. ضحك الحاج مني ورفعها بسهولة، ثم فتحها وإذا هي مملوءة بليرات ذهبية لا يمكن عدها، وبدأ الحاج أحمد يحدثني عن ثروته وتجارته والمحلات الكثيرة التي يملكها في مصر وغيرها، وكيف أنه في طريقه الآن لتفقد هذه المحلات.

وعندما رَسَتْ الباخرة بنا في (مرسين)، رغبت أن أخرج إليها بصحبته، ونزلنا إلى القارب معًا. وقبل نزولنا طلب منا ضابط الشرطة جوازاتنا، فأجابه الحاج أحمد: (باسبورت يوق) أي: (لا يوجد). وعبثًا حاولت إقناع الضابط أن الحاج يحب المزاح وأن لديه باسبورت، وأخذ الحاج إلى الساحل معتقلاً وأودعه قفص التوقيف. وبعد إلحاحي، أعطى الحاج باسبورته للضابط فأدرك آنذاك أنه كان يمزح وصار الكل يضحك. واستمر الحاج يتجول في المدينة وهو يصيح: (باسبورت يوق)، ورجع إلى الباخرة وهو لا يزال يصرخ: (باسبورت يوق.. باسبورت يوق..)

وصلت الباخرة الإسكندرونة يوم السبت 27 آب، أي

بعد مرور خمسة أيام من مغادرتنا مرسين. وقبل تركي لها، بحثت عن جاري الحاج أحمد الذي أخذ يدور حول الباخرة هاربًا من توديعي والركاب يتابعونه ضاحكين، ورجوتهم أن يمسكوه. وعند توديعي له أخذ يبكي بحرارة متألمًا لفراقي، ودعا لي بالتوفيق والسلامة.

## حلب ثم بغداد

استأجرت عربة لتقلني مع عائلتي وتركنا ميناء الإسكندرونة إلى حلب ووصلناها في العاشرة من مساء الاثنين 29 آب 1905. نزلنا عند وصولنا في فندق إسطنبول، الفندق الوحيد في المدينة. وأبى صديقنا القديم الحاج محمد شريف المقيد إلا أن يضيفنا في داره في اليوم التالي. بقينا عنده عشرة أيام، قضيناها في الاستعداد للسفر إلى بغداد. وفي أحد هذه الأيام، وبينما كنت أتجول في المحلات التي يقيم فيها المكارون القادمون من بغداد، شاهدت (مسكين)، الرجل الذي صاحبنا في سفرتنا من بغداد إلى حلب، جالسًا في مقهى على قارعة الطريق. وفرحت لرؤيته كثيرًا ووخزته بعصاي، قائلاً له

بالتركية: (لماذا تجلس على قارعة الطريق؟)، فأجابني معتذرًا وخائفًا من لهجتي القاسية، ثم سألته بالعربية فيما إذا كان يعرفني فأجاب بالنفي وهو يرتجف. عرفته بنفسي وعانقته، وأخذ يقبل يديّ ويرقص فرحًا. جلستُ معه في المقهى، وجاء المكارون الآخرون يسلمون عليّ، وكان أكثرهم من جانب الكرخ في بغداد.

سألت (مسكين) عن عدد الدواب في قافلته، فأجاب: بأن لديه أربعة خيول وحمارًا واحدًا، وأنه قد اتفق مع بعض التجار لنقل بضائعهم إلى بغداد وأنه مستعد للرجوع عن هذا الاتفاق ليكون في خدمتي. رفضت اقتراحه شاكرًا عواطفه وكريم شعوره. قال لي (مسكين): إنه لم يعد إلى حلب منذ تلك السفرة معي، لأن طريقها متعبة لخيوله، ويرجح الآن المسافات القصيرة كطريق بغداد - كربلاء.

وبعد استشارة مسكين ورفاقه، استأجرت أربعة خيول و(محفة)، وهي تشبه الغرفة الصغيرة أو صالون السيارة، مصنوعة من الخشب المدهون بالألوان الذهبية البراقة وفي جوانبها الأربعة نوافذ من الزجاج

وباب واحد، وفي داخلها فرش مناسب لشخصين.
يحمل المحفة حيوانان، واحدٌ من الأمام والآخر من الخلف، وهي مريحة أثناء السير على الرغم من تمايلها الكثير. اشترينا كذلك خيمة واسعة، واستخدمنا عكاما ليقود (التختروان)(2) وعكاما آخر للطبخ والخدمة.
غادرنا حلب يوم السبت 9 أيلول 1905 يرافقنا مدير كمرك البصرة، وهو رجل تركي محترم اغتيل فيها في وقت لاحق، وتاجران إيرانيان وصيدلي. واختارتني هذه المجموعة لإدارة القافلة في حلها وترحالها.
اعتادت القافلة السير مساءً، مستفيدةً من برودة الجو، وتحط رحالها عند الفجر، فتنصب الخيمة على ساحل الفرات ليخلد أفرادها للراحة وتناول الطعام وتقديم العلف إلى الدواب، ثم تعاود المسير بعد العصر.
تكرر هذا النمط اليومي حتى وصلنا الفلوجة، حيث وجدت في استقبالنا أخي عبد الرحمن ونسيبي عبد الوهاب القشطيني وصديقنا إبراهيم حلمي، رحمهم الله. وقد جاءوا بعربة خاصة رافقونا بها إلى بغداد.

وفي (أبي منيصير) فرحت بلقاء عدد آخر من الأصدقاء والأقرباء يترأسهم الأعمام عبد الباقي وعبد السلام. تابعنا السير حتى وصلنا بغداد في الساعة العاشرة من صباح يوم 30 أيلول 1905، وكان أخي الكبير الحاج رشيد ينتظرنا على باب بيتنا. وعم العائلة الفرح والسرور، وأخذت وفود الأصدقاء والجيران تزورنا للترحاب بنا يوميًا، وعقدت النساء مجلسًا خاصًا بهن في بيت العم السيد إبراهيم، الملاصق لبيتنا لمدة ثلاثة أيام.

## حفلة عرس معادة

أجريت لي حفلة عرس إسطنبولية بعد وصولي بغداد بعشرة أيام، في 15 تشرين الأول 1905، وهي إعادة لحفلة عرسي في إسطنبول. وأقام نسيبي المرحوم عبد الوهاب القشطيني وليمة عشاء في داره ليلة الزفاف، كما قام إخوتي بتقديم جهاز عرس لائق بزوجتي، واعتنوا بها وبوالدتها اعترافًا منهم بما غمروني به من عناية واحترام، وردًا للجميل الذي قدمته عائلة زوجتي لي في إسطنبول.

في قلم المكتوبي

بعد انتهاء أيام الحفاوة والاستقبال، راجعت والي بغداد، عبد الوهاب باشا الأرناؤوطي(3)، وقدمت له كتاب نظارة الداخلية في إسطنبول لتعييني في وظيفتي الأولى في قلم (المكتوبي) في الولاية. رحب بي الوالي وأرسلني إلى المكتوبي، طاهر بك، مع أمرٍ بالدوام عنده، وكان ذلك في يوم الأربعاء 5 تشرين الأول 1905.

كان زملائي في قلم المكتوبي: عبد الله خندة، ورشيد مامو، وعزت الفارسي، ورشيد جمعة، ومحمود

الشاوي، وعبد الرزاق الحكيم، ومنير عباس، وخماس، والشيخ عارف. وكان راتبي الأول خمسمائة قرش.
إن قلم المكتوبي هو ديوان الولاية، يقوم بتحرير المراسلات الصادرة من الوالي ومن مجلس إدارة الولاية. ويرأس (المكتوبجي) هذا الديوان يساعده (مميز القلم) أي: رئيس الكتاب. وفي المكتب دائرة للمحاسبة يرأسها (الدفتر دار)، وهي مسئولة عن ضبط واردات الدولة ونفقاتها العامة والأمور المالية الأخرى. وفي الديوان دائرة للمعارف لتمشية أمور المدارس والتعليم، ودائرة للأوقاف، وأخرى (للطابو)، ودائرة للنافعة مسئولة عن الطرق والمواصلات. وجميع هذه الدوائر مسئولة أمام الوالي وعلى اتصال دائم بوزاراتها في إسطنبول.
كانت ولاية بغداد تشمل في ذلك الوقت لواءين فقط بالإضافة إلى لواء(4) المركز بغداد، هما: الديوانية وكربلاء. والأقضية الملحقة بالديوانية هي: الشامية والسماوة والحلة، والملحقة بكربلاء هي: النجف والهندية. وأما الأقضية الملحقة ببغداد فهي: بعقوبة ومندلي وبدره وخانقين وكوت الإمارة والكاظمية

وسامراء والعزيزية والجزيرة (الصويرة).
وعند التحاقي بقلم المكتوبي خصنّي مصطفى أفندي، مميز الدائرة، بالمراسلات الواردة من الإداريين في أقضية بدره وسامراء، والأوامر الصادرة لهم من الولاية. كان رفاقي في القلم يساعدونني في الاطلاع على مكاتباتهم الرسمية، ومنحني هذا خبرة عملية في الأمور الإدارية، كان فيه إضافة لا بد منها لمعلوماتي النظرية التي درستها في المدرسة الشاهانية.

التدريس في الإعدادية

بعد مرور شهر من عملي في قلم (المكتوبي) بُلغت بأمر تعييني للتدريس صادر من نظارة المعارف، يكلفني بتدريس الماكنة و(القوزموغرافيا) أي: علم الفلك، في المدرسة الإعدادية براتب شهري قدره ثلاثون قرشًا. استغربت من هذا الأمر، فأنا لا أجيد علم الماكنة، واعتذرت طالبًا تبديل الموضوع ولم يستجب إلى طلبي، فاضطررت لأخذ دروس خاصة في هذه المادة عند أستاذ الرياضيات، القائم مقام العسكري صبري بك. داومت على تدريس الماكنة

و(القوزموغرافيا) لمدة شهر واحد، حتى جاءني معاون مدير المدرسة (علي أفندي) وأظهر لي تبرمه من مدرس الكيمياء، وطلب مني القيام بذلك عوضًا عنه. سرني ذلك كثيرًا لحبي لهذه المادة منذ أن درستها في كلية الطب.

فيضان عظيم

أصاب بغداد في عام 1906 فيضان عظيم، وطغت مياه الفرات، نتيجة للرياح الشديدة، على السهول بين النهرين، وانكسرت سدة (السرية) التي كان قد بناها الوالي سري باشا(5) على الجانب الأيسر من الفرات، واكتسحت المياه السهول بسرعة مدهشة حتى وصلت إلى سدة المسعودي بالقرب من مرقد الشيخ جنيد والست زبيدة في مشارف صوب الكرخ في بغداد. ثم تدفقت المياه المتلاطمة وغمرت (سوق حمادة) و(علاوي الحلة)، وهرع السكان رجالاً ونساءً، فلاحين وعمالاً وجنودًا، لإنقاذ صوب الكرخ من الغرق، شاركهم في ذلك الوجهاء والعلماء والشيوخ، وانهمك الجميع بتقوية السداد بالحصران والأتربة والأخشاب على مدى أسبوع.

كان هذا الفيضان من أفظع الفيضانات في تاريخ العراق، وأدى إلى خسائر جسيمة في المباني والمزارع والمواشي وراح ضحيته نفوس بريئة، وأصبحت المنطقة المغمورة وكأنها بحر خضم تخوضه الزوارق والسفن لنقل الناس بين المدن، واستمر ذلك لمدة طويلة.

ونتيجة لذلك، شكلت الحكومة لجنة لتقدير أضرار الفيضان برئاسة السيد عبد الرحمن النقيب وعينتني سكرتيرًا لها. وأذكر أن الإحصائيات التي توصلنا إليها أشارت إلى انهيار أكثر من مائة وخمسين دارًا ووفاة سبعين شخصًا تحت الأنقاض. واقترحت اللجنة تعويضات مناسبة للمنكوبين، ونفذت الدولة هذه التعويضات.

ويذكر الأحياء من رجال الكرخ الذين عاصروا هذا الفيضان ما قاساه الأهالي من رعب وتشتت، وما قالته العجائز والشيوخ من أهازيج كثيرة.

# الفصل الرابع

# في ســامـراء

## قائم مقام بالوكالة

مرَّ على تعييني في قلم المكتوبي سنة ونصف، طلب مني بعدها المكتوبجي، طاهر الحضور إلى دار الوالي، أبو بكر حازم(1)، بناءً على طلبه. أقلقني هذا الطلب المفاجئ وفكرت عما عسى أن يكون سببه، فهل هناك خطأ ارتكبته؟ أو تقصير في واجبي؟ أو أن هناك شكوى أو وشاية ضدي؟.

رحب بي الوالي، وأخذ يثني على سلوكي وأعمالي، وقال: إنه قرر تعييني لوكالة قائم مقامية سامراء، فقد سافر قائم مقامها إلى الحج وسيكون ذهابه بلا رجعة. وأخذ ينتقد سلوكه وإدارته للقضاء.

لم أتوقع هذا التكليف وترددت بالقبول، واعتذرت لصغر سني وعدم إكمالي الثلاث سنوات، وهي المدة القانونية لخدمتي في قلم المكتوبي. وتخوفت كذلك من الفشل لوجود أخي الكبير، عباس أفندي، مدرسًا مقيمًا في سامراء، وطلبت إعفائي من هذه المهمة. إلا

أن الوالي أصر على قبولي، وقال: إنه يعرف أخي عباس، وإنه متأكد من أنه سوف لن يتدخل في شؤوني، ولم يشفع تكراري للاعتذار. قال لي طاهر بك: بأن الوالي قد اعتمد عليك وهو واثق منك، والواجب يقضي إطاعتك لأوامره، فاضطررت إلى القبول.

أخذ الوالي عند ذاك يلاطفني ويداعبني، وقال: (عليك أن تجتهد بإطالة شعر لحيتك) ثم أخذ يرشدني ويحثني على تحقيق العدل بين الرعية، ومعاملة الصغير كولدي والكبير كأبي، وأن أكون عفيفًا نزيهًا. انصرفت من دار الوالي وأنا مرتبك وشاعر بأهمية الواجب الملقى على عاتقي. وفي اليوم التالي، ذهبت إلى حلاقي، الحاج صالح، في سوق السراي وأخبرته بنصيحة الوالي ووظيفتي الجديدة، فوعدني أنه سيبذل جهده لإطالة ذقني في فترة قصيرة، وبدأ يلح بالموس على وجهي حتى ظهرت بوادر الشعر بعد خمسة أيام(2).

سافرت إلى سامراء بعربة تجرها الخيول، ووصلتها بعد سفرة شاقة استغرقت من الفجر حتى المساء.

وفي صباح يوم 15 تشرين الأول 1907، ذهبت إلى سراي الحكومة ووجدت غرفة القائم مقام خالية من الأثاث، وفيها دكة عليها مقعد صغير ملطخ بالحبر، ففرشت عليه منديلي وجلست عليه، وتوافد الموظفون للترحيب بي. وبعد برهة تجولت في غرف السراي الأخرى وإذا بها قديمة وقذرة جميعها.

مقتل مفتش الأغنام

كان مقتل حسين أفندي، مأمور تفتيش الأغنام، أول قضية عرضت عليّ، وقد حدثت قبل وصولي بيوم واحد. وعند التحقيق، علمت أن المأمور هو من مدراء المال المفصولين، أرسلته الولاية مع قوة مسلحة للإشراف على تعداد الأغنام عند العشائر في منطقة سامراء لأخذ الرسوم عليها، وأنه قد طالب برسوم من عشيرة (البو عباس) من غير أن تكون لديهم مواشٍ. وتعرض رجال هذه العشيرة للاعتداء والإهانة فثاروا عليه وقتلوه مع جنديين من القوة المسلحة المصاحبة له.

وأخذنا بتعقب القتلة وألقينا القبض عليهم، وأرسلت السيد حمدي وأخاه من رؤساء (البو عباس) إلى

بغداد تأديبًا لهم وإنذارًا لباقي الرؤساء، وطلبت من الولاية حجزهم لمدة مناسبة توطيدًا للأمن.

وقد نظم الأستاذ حسن النقي الدوري الأبيات التالية لهذه المناسبة :

آل سامراء فيكم قد غدا

حاكم للعدل والفضل محيز

قد أزال الظلم عنا أرخوا

العمر يحكيه ذا العبد العزيز

124 106 700 53 340 سنة 1323هـ

## مع الزوار الإيرانيين

بعد مباشرتي العمل بخمسة أيام، علمت بوقوع اعتداءات على الزوار الإيرانيين في العتبات المقدسة بسامراء. وفي إحدى الليالي، لبست زيا إيرانيا ودخلت إلى محل غيبة الإمام المهدي ومرقد الإمامين علي الهادي وحسن العسكري، رضي الله عنهما(3)، واطلعت بنفسي على ما كان يحدث من اعتداءات على الزوار. وفي اليوم التالي، استدعيت الخدم ووبختهم وشددت عليهم النكير، وحذرتهم من أني سأراقب كل ما يحدث بنفسي. وتحسنت الأمور بعد

ذلك بشكل ملحوظ.

وفي تلك السنة، كان موسم الزيارة مزدحمًا بشكل غير عادي، وكان الزوار الإيرانيون يغادرون سامراء بعد انتهاء الزيارة، إلى بعقوبة عبر الصحراء، مما يعرضهم إلى قطاع الطرق. أعلمت الولاية بهذا الأمر، فأرسلت لنا تعليمات تقضي بحمل الزوار على السفر إلى بعقوبة عن طريق بغداد تأمينًا لسلامتهم. إلا أن الزوار أصروا على سفرهم عبر الصحراء، وتوسطوا ممثل إيران لديّ للسماح لهم بذلك من غير جدوى.

وأخذت أراقب الزوار لمدة خمسة أيام، وفي اليوم السادس شاهدت، أثناء تجوالي متنكرًا، جماعة من رؤساء القوافل الإيرانية يتداولون الحديث مع نائب القنصل الإيراني ومعاون الجندرمة(4)، ويتفقون معهم على الخروج صباحًا بعد فتح أبواب أسوار المدينة لهم، على أن يدفعوا (قرانًا)(5) واحدًا عن كل زائر، نصفه لنائب القنصل والنصف الآخر لمعاون الجندرمة.

كانت سامراء آنذاك محاطة بسور ضخم مرتفع تقفل أبوابه ليلاً. ولمنع الزوار من الخروج، غلقت أبوابه

الأربعة، وأنجزت مفاتيحها ، ورجعت إلى بيتي المقابل لدار قائد الجندرمة.

وعند الفجر، سمعت أفراد القوافل يخبرون قائد الجندرمة أن مفاتيح السور عند القائم مقام، وأخذه العجب وطلب منهم الانتظار حتى شروق الشمس.

وفي الصباح، طالبني الأهالي بفتح أحد الأبواب للتزود بالماء من النهر ووافقت على طلبهم، وطلبت من الجندرمة في الوقت نفسه منع الإيرانيين من الخروج.

إلا أن ذلك لم يجد نفعًا إذ اقتحم الأبواب ستمائة خيال إيراني مرة واحدة وتمكنوا من مغادرة القضاء.

## زيارة الشاه زاده أحمد خان

وصل سامراء سنة 1907، (الشاه زاده)، الأمير أحمد خان بن مظفر شاه، ولي عهد إيران مع والدته. وكان عمره خمسة عشر عامًا. وقمت له بواجب الاستقبال والضيافة على أحسن وجه، ووفق أوامر الولاية.

وبعد بقائه أربعة أيام أخذ يستعد للعودة، فأرسل لي مع نائب القنصل هديةً مكونة من شال وساعة ذهبية، فاعتذرت عن قبولها. ويظهر أن (الشاه زاده) لم يرق له هذا الرفض، فطلب من الوالي عند رجوعه إلى بغداد، تنحيتي عن وظيفتي. وسأله الوالي عن السبب فلم يبدِ سببًا وألح على طلبه.

وبعد مغادرته العراق، ذهب القنصل العام الإيراني في بغداد إلى الوالي وأعلمه بأن غضب (الشاه زاده) هو نتيجة لرفضي هديته، وطلب منه عدم تنفيذ طلبه. أخبرني الوالي حازم بك نفسه بذلك، كما أكد عليه نائب القنصل في سامراء.

## تخمينات الحاصل الصيفي

بعد مباشرتي في سامراء بعشرة أيام، قدم لي مدير المال تقريرًا يطلب فيه تعيين لجنة لتخمين الحاصلات

الزراعية الصيفية على شواطئ دجلة كالرقي والبطيخ. واستغربت من طلبه هذا؛ لأن الفصل كان خريفًا ومياه النهر قد غطت الشواطئ وليس هناك زرع أو بطيخ.

كان ذلك في شهر رمضان، وجمعت مجلس إدارة القضاء للتداول في الأمر، وأصرّ مدير المال على طلبه، وقال: إن المعتاد هو تشكيل لجنة كل سنة للتحقيق مع الزراع عن حجم الأرض المزروعة وارداتها، معتمدة على إفادات الشهود وتحليف المزارعين. ورفضت هذا المقترح لأنه يخالف نظام الأعشار، فقد كان من الواجب تعيين المخمنين قبل الموسم أو حال نضج الحاصل. طلبت من أعضاء مجلس الإدارة إبداء رأيهم فلم يبد أحد منهم أي وجهة نظر، وتدخل مدير المال مرة أخرى، وقال لأعضاء المجلس: (لماذا لا تتكلمون؟ فهل يوجد غيركم من يقوم بالتخمين فيما إذا اتفقنا على تشكيل اللجنة؟)

أبرقت إلى الولاية حول هذا الموضوع، وجاء ردها سريعًا، طالبًا التحقيق في هذا الأسلوب غير النظامي وتأمين حقوق الخزينة بالطريقة التي أراها

مناسبة. اشترطتُ أن يستوفى العُشرْ تحت رقابة أشخاص أمناء يعينون من قبلي على أن لا يلحقوا بالزراع أي ضرر، وأن يشرفوا على عمل الملتزم الذي اخترناه. وعينت السيدين: طالب وعباس حمدي، رؤساء (البو عباس)، وهما من خيرة أهل سامراء، وأرفقتهما بالملتزم، وأنهوا تخميناتهم بعشرة أيام فقط.. وتبين لي بعد ذلك أن غاية مدير المال كانت ابتزاز الأموال من الزراع لفائدته الخاصة، وأنه كان المسؤول عن الإهمال وسوء التصرف.

## قضية عشيرة البو عيسى

بلغني بصورة خاصة أن أفرادًا من عشيرة (البو عيسى) قد اشتروا خمسًا وثلاثين بندقية يونانية من الطراز الحديث من أحد تجار الكويت بثمن ثلاث ليرات للبندقية الواحدة، استعدادًا لقتال (البو عباس) والانتقام منهم من حادثة قديمة.

أخبرت الولاية، وطلبت إرسال ثلاثين جنديًا خيالاً لجمع هذه الأسلحة لتفادي وقوع صدام مسلح. وقبل وصول القوة، جلبت رؤساء (البو عيسى)، وهم: كريم وأولاد عمه، وأوقفتهم بالسراي لمنعهم من مقاومة جمع

الأسلحة· وأرسلت مع الخيالة دليلاً أميناً صاحبهم إلى مضارب البو عيسى وزودته بتعليمات خاصة· ووصلت القوة بيوت العشيرة مع مطلع الفجر وأحاطت بها ، وتمكنت من جمع البنادق جميعها وأرسلتها إلى بغداد·

واعترف رؤساء (البو عيسى)، بعد أن أطلقت سراحهم، بنواياهم السيئة، وشكروني على عملي الذي قمت به حقناً لدماء الأبرياء من العشيرتين·

## استيفاء ضريبة الأغنام

طلب مني مدير المال قوة من الخيالة لاستيفاء ضريبة الأغنام من عشيرة (البوصكو) في شمال تكريت. وقد أرسلت الولاية القوة بقيادة الضابط (كيلان أفندي) لترافق مدير المال في مهمته. وبعد عشرة أيام، رجع مدير المال من غير أن يقدم معلومات عما حدث، وماطل في تقديم تقريره وأبقى تفاصيل ما جرى سرًا بينه وبين الضابط. علمت بعدئذ من أحد أفراد القوة بأنهم قبضوا رسومًا عن أربعة عشر ألفًا من الأغنام من غير أن يقدموا وصلاً بذلك، وأن المبلغ قد اقتسمه الضابط ومدير المال، وهم عازمون على تقديم تقريرٍ عن خمسمائة رأس من الغنم فقط.

استدعيت مدير المال وشددت عليه بضرورة تقديم تقريرٍ كاملٍ، وأعلمته بأني أعرف مقدار الضريبة التي جمعها وهددته بإبلاغ الولاية. فأضطر إلى جمع أفراد القوة العسكرية وطالبهم بإرجاع الأموال المقسمة عليهم، ثم قدم بعدها تقريرًا صحيحًا بالمبالغ المستوفاة. وكان نتيجة ذلك أنني فقدت ثقتي به فطلبت من الولاية تنحيته عن وظيفته، ونفذت الولاية

الطلب.

أرسلت الولاية بعد ذلك موظفًا آخر يدعى علي أفندي، ليقوم بمهام مدير المال وكالةً. وعند وصوله أبديت له النصح لأن يكون عفيفًا ومستقيمًا فوعدني بذلك.

واستمر بتنظيم دائرته والمعاملات المالية بشكل سليم لمدة شهرين، جاءني بعدها إلى البيت وأخرج منديله وأخذ يبكي. سألته عن سبب بكائه، فقال: (أنا متزوج من امرأتين ولي أولاد أرسلت أحدهم إلى إسطنبول للدراسة، وإن راتبي لا يكفي لإعالتهم، ولم ألمس منك المساعدة لي للارتزاق والحصول على موارد فوق راتبي)

دهشت لهذه الوقاحة والدرك الذي وصل إليه الفساد المستشري في جهاز الحكومة، وتملكني أسفٌ شديد. أجبته: بأن لا يتوقع مساعدتي له على الباطل، وأن مساعدتي له ستقتصر على توصيتي بتثبيته بوظيفته، وإلا فله أن يطلب النقل لمحل آخر يحقق فيه رغباته. أجابني وهو يقسم بإيمان مغلظة: بأنه سيستمر بعمله بدقة ونزاهة. وقدمت مقترحًا بتثبيته أصيلاً في وظيفته، لكن الولاية رفضت ذلك بالنظر لسرقاته

العديدة السابقة التي كان قد سيق بموجبها للمحاكم.

قضية فرقة البيجات في تكريت

في ناحية تكريت فرقةٌ تسمى (البيجات) قوامها مائة وعشرون شخصًا تمتهن تهريب الدخان والملح، وقد لاذ بها نفر من الهاربين من الجندية من الموصل والدليم وبعض الرجال الذين اتخذوا من الشقاوة مهنةً لهم.

وفي سنة 1907، اعتدى قسم من هؤلاء المفسدين على قافلة متكونة من اثنتي عشرة عربة من عربات الدائرة السنية وهي في طريقها إلى الموصل، وسلبوا دوابها وكل ما فيها. وعلى أثر ذلك، صدر الأمر بتعقب الجناة واسترداد المواد المنهوبة. فأمرت قائد الجندرمة، عبد الرحمن أفندي، بجمع قوته المكونة من ثلاثين خيالا للقيام بهذا الواجب.

وعند وصوله تكريت، اجتمع برؤساء (البيجات) وضغط عليهم فتعهدوا بإرجاع المنهوبات وتسليم المجرمين. ولما وجد القائد أن الأمر سهلٌ، تمادى وطالبهم بتسليم جميع الهاربين من الخدمة العسكرية

ودفع مبالغ كبيرة مقابل أتعابه. وقام السيد حمدي، نقيب تكريت، بدور الوسيط بين الطرفين ولمنفعته الخاصة أيضًا.
تصلب رؤساء البيجات تجاه هذه المطالب وتأزم الوضع، فتحصن قائد الجندرمة في وسط تكريت استعدادًا لضرب الجناة في بيوتهم. ووقع اشتباك مسلح عنيف قتل فيه (اليوزباشي)(6) عبد الرحمن أفندي قائد القوة وجرح ابنه، وقتل اثنان من أفراد قوته مع ثلاثة آخرين. وبعد اندلاع القتال ، هرب النقيب حمدي إلى سامراء وجاءني إلى دائرتي وقت الظهر قائلا: إن القائد كان يريد الحصول على مبالغ من البيجات مقابل الفارين من الجندية، وستصلك أخباره بعد قليل. سألته عن سبب مجيئه، فقال: إنه ترك تكريت صباحًا ، وهو يقصد بغداد لأمور خاصة به. قلت له: (كيف تترك القائد وهو في أزمة؟)، أجاب: بأنه أراد التدخل لكن اليوزباشي لم يصغ لكلامه. وودعني على عجل وهو في حالة ارتباك ظاهر، واستقل إحدى العربات إلى بغداد قبل موعدها المقرر للسفر.

وبعد قليل، جاءني جندي من الفصيل في تكريت وشرح لي ما حدث هناك، فأمرت بالقبض على النقيب بعد أن تأكدت من أنه كان وراء الحوادث، لكنه كان قد اجتاز حدود القضاء فلم نتمكن من اللحاق به، وطلبت من الولاية اعتقاله.

حدث كل ذلك عند استقالة الوالي أبو بكر حازم وتولي ناظم باشا، الوزير ورئيس الهيئة الإصلاحية، ولاية بغداد وكالةً(7). وصدر من الولاية أمر لي بالسفر الى تكريت مع قوة عسكرية إضافية بقيادة (البكباشي) (8) الحاج نامق بك الى تكريت.

تأكدنا عند التحقيق بأن القتال كان نتيجة لمبالغة الجندرمة في طلباتها ومضايقاتها للبيجات وطردهم من المدينة، ثم ملاحقتهم في الجزيرة خارج تكريت. وشرح لي الرؤساء المحايدون القضية على حقيقتها، وطلبوا أن لا أتوسع فيها، وهم يضمنون تعاون رؤساء البيجات معي وإرجاع المنهوبات، وتسليم المجرمين خلال ثلاثة أيام. كذلك تلقيت أمرًا سريًا من الوالي يطلب مني إنهاء القضية بسرعة بمناسبة إعلان الدستور العثماني الجديد.

ورجع السيد حمدي إلى تكريت بلا علم الولاية مستفيدًا من إعلان الدستور. وقال لي: إن رؤساء البيجات غير مطمئنين لاتفاقك معهم لأنك لم تقبل منهم مالاً. أكدت له أن وعودي تستند إلى أوامر الولاية. ثم طلب مني أن أقسم بالقرآن ليصدّق وليخبر الرؤساء بذلك. تناولت المصحف الكريم وأقسمت له بحضور قائد المفرزة، الحاج نامق بك، بالالتزام بالاتفاق. وبلغت الوقاحة بالنقيب أن قال: إنه لا يزال غير مطمئن لوعدي. فثارت ثائرتي وأمرت الحاج نامق بأن يلقيه في النهر من فوق الطار المرتفع(9). واحتج النقيب، قائلاً: (كيف يمكنكم عمل ذلك وقد أعلن الدستور؟) كررت أمري على الحاج نامق، فرفعه بين يديه وأسرع به ليلقيه في النهر، وهو يصرخ ويستنجد ويتوسل ويتعهد بأن لا يتدخل بهذه الأمور بعد اليوم. وأطلقت سراحه، وذهب إلى بيته باكيًا.

وفي اليوم التالي، علمت أن السيد حمدي ذهب إلى البيجات، وشاهد اثنين من الشقاة المطلوبين للعدالة وهما موثقان بالحبال، استعدادًا لتسليمهما للقوة العسكرية، فراح يفك وثاقهما، قائلاً: (لماذا تسلمون

إخوانكم للحكومة فتخسرونهم؟) وهكذا أفسد النقيب كل محاولاتنا للاتفاق مع رؤساء البيجات، وهرب بعد ذلك إلى بغداد شاكيًا الحالة في تكريت، وطالبًا سحب القوة العسكرية منها.

أمرت القوة العسكرية بتعقب الجناة، فعاد القتال بين المفرزة والبيجات، وقتل ستة منهم وقبض على عشرة أحيلوا للمحاكم، ولم يصب أحد من أفراد القوة العسكرية. وطلب النقيب التحقيق بما جرى، ولم يسفر ذلك عن لوم الإدارة على تصرفها، وظهر الدور السيئ الذي قام به النقيب بوضوح فأحيل إلى المحاكم، وتقرر حبسه لمدة سنة ونصف. وهكذا انتهى النقيب فتخلص القضاء منه. وظهر لنا بعدئذ أنه كان مسندًا من (أبي الهدى الصيادي)(10) الشخصية المعروفة في إسطنبول.

## الاحتفالات بإعلان الدستور

طلبت الولاية من ملحقاتها جميعًا تزيين دوائر الحكومة وإقامة الاحتفالات بمناسبة إعلان الدستور العثماني، في 8 شباط 1908. وأقام مدير ناحية تكريت، كاني مصطفى أفندي الأعرج، وهو تركي الأصل، معالم الزينة في دائرة الحكومة. وصادف في هذه الأثناء أن جُلِبتْ جثث القتلى من الشقاة، فأمر بتعليق رؤوسهم مع فوانيس الزينة. كما طلب من أقارب أصحاب الرؤوس المقطوعة من التكارتة من البوناصر والحديديين وقوفهم بجانبها تلك الليلة وحتى الصباح.

وعندما سمعت بذلك، أمرت بسحب يد هذا المدير حالاً. فجاءني إلى سامراء وأنبته على عمله، وأجابني باللغة التركية بما معناه: (في هذه الأيام المباركة يجب تعليق رؤوسٍ كثيرةٍ)

وفاة زوجتي

فجعت بوفاة زوجتي، أم ابني الأول عبد المجيد، في تشرين الثاني 1908 بعد مرض لم يمهلها أكثر من 24 ساعة، وقد تركت وفاتها أثرًا كبيرًا محزنًا في

نفوس عارفيها، ومازال الأحياء منهم يذكرونها بألم شديد(11).

الجراد يكتسح سامراء

اكتسح الجراد في سنة 1908 مدينة سامراء بشكل لم يسبق له مثيل، وأتلف المزارع وقضى على سعف النخيل، والتهم الألبسة والحبوب والطعام المطبوخ، وهجم أخيرًا على جدران السور والبيوت وأكل الجص الذي يغطيها. كافحناه بشدة لمدة خمسة عشر يوما، مستعينين بالأهالي ورجال العشائر من غير الحصول على نتائج تذكر. وقد ترك الجراد وراءه خسائر كبيرة لا يزال الناس يتذكرونها.

مشروع للبرق والبريد

لم يكن في سامراء خدمات للبرق والبريد، وكنا نرسل البرقيات والرسائل إلى الكاظمية ومنها إلى بغداد، حتى نفذت الولاية طلبي بتأسيس دائرة برق وبريد، وأرسلت لها مفتشًا هو فهمي أفندي الذي شرع بإمداد الخط، وتسلم المأمور عزيز أفندي مسؤولية الدائرة بعد أن تم الانتهاء منها في 29 تشرين 8091.

الهيئة الإصلاحية في بغداد

تألفت هيئة إصلاحية في إسطنبول برئاسة الوزير ناظم باشا، وجاءت الهيئة إلى بغداد قبل إعلان الدستور، وضمت لها أعضاء من رؤساء الدوائر الرسمية المطلعين على شؤون الموظفين. وقامت بأعمالها ففصلت بعض الموظفين وحرمت قسمًا منهم من وظائف الدولة بصورة دائمة. ضمت الهيئة الإصلاحية في بغداد أيضًا الأشراف والعلماء والأعيان المعارضين لسياسة الاتحاد والترقي، المتحيزة للعنصر التركي. واصطدم الوالي أبو بكر حازم مع الهيئة فاستقال من منصبه، فأودعت الولاية وكالةً إلى ناظم باشا رئيس الهيئة وأخذ يعالج الأمور بصبر وتعقل.

وقامت في ذلك الوقت ببغداد مظاهرات وهرج ومرج بسبب الخلاف بين الجمعية المحمدية ورجال حزب الاتحاد والترقي(12).

غادر ناظم باشا بغداد للالتحاق بوظيفته كوزير للعدلية، وقام محله الفريق محمد فاضل باشا الداغستاني وكالةً أيضًا.

# الفصل الخامس

## فــي السـماوة

## قائمَ مقامٍ أصيلاً للمرة الأولــى

ورد سؤالٌ في زمن وكيل الوالي ناظم باشا من نظارة الداخلية في إسطنبول، يستفسر عن سلوكي وخدمتي في (المعية) وفي سامراء خلال الثلاث سنوات الأخيرة، فأجابت الولاية بشكل جيد، فصدرت الإرادة السنية بتعييني قائمَ مقامٍ أصيلاً لقضاء السماوة في زمن الوالي (نجم الدين منلا)(1)، الذي تسلم الولاية من الوكيل محمد باشا الداغستاني(2).

بلغت خدمتي في سامراء سنةً وخمسة أشهرٍ كنت أتقاضى أثناءها راتبًا قدره سبعمائة وخمسة وعشرون قرشًا، منها مائتان وخمسون قرشًا عن وكالة القائم مقامية. وكانت الليرة الذهبية آنذاك تساوي مائة قرش صاغ.

تركت سامراء في 8 شباط 1909، وعند وصولي بغداد في 9 شباط، فاجأني موظفو الإدارة والمالية بأسفهم لنقلي إلى السماوة، حيث الإدارة مفقودة

والأمن مضطرب. وأطلعني مصطفى أفندي، مميز المحاسبة، على سجل القضاء، موضحًا أنه قد تبدل ثلاثة وثلاثون قائم مقامًا، أصيلاً ووكيلاً، في سنة واحدة فقط. كان بعضهم يستقيل قبل أن يغادر بغداد لمجرد معرفته عن الحالة فيها، والبعض الآخر يستقيل بعد دوامه أسابيع أو أيامًا. وهناك واحدٌ منهم فقط، تمكن من البقاء كوكيل لمدة ثلاثة أشهر.

عم الأسف على كل من علم بتعييني، ومنهم وكيل الوالي، محمد باشا الداغستاني، ومعاونه والدفتردار، واتفقت معهم على الالتحاق بوظيفتي على أن أقدم استقالتي بعد مرور شهر واحد.

الطريق إلى السماوة

تركنا بغداد في 3 آذار 1909 بعربة خاصة. وعند وصولنا المسيب(3)، قضينا سواد الليل فيها عند صديقنا الحاج مهدي، وهو من وجوه البلدة ورؤسائها. وفي صباح اليوم التالي، استأجرنا (كعد) وهو نوع من السفن النهرية انساب بنا مع مياه الفرات، ووصلنا الكوفة(4) عند المساء. ثم تركنا (الكعد) هناك وذهبنا إلى النجف لزيارة مرقد الإمام

(علي) عليه السلام، وقضينا ليلتنا في دار القاضي السيد أحمد رفيق الحديثي. ثم عاودنا السفر في السفينة إلى الشامية(5) حيث نزلنا ضيوفًا على القائم مقام عاكف أفندي الآلوسي. وفي صباح اليوم التالي أحضر لنا زورق صغير مع الدوافيع(6) لنقلنا إلى الديوانية(7)، ووصلنا موقع (الشافعية) على (هور)(8) (ابن نجم)، وكان الجو عاصفًا والمياه هائجة. وكانت هذه هي تجربتي الأولى لركوبي زورقًا صغيرًا في أحوالٍ جويةٍ رديئةٍ. وفي(الشافعية) وجدت في انتظاري بعض جنود الجندرمة، رافقني ثلاثة منهم على ظهور الخيل إلى الديوانية التي وصلناها بعد الغروب.

كان المتصرف آنذاك هو طاهر بك، المكتوبي في ولاية بغداد سابقًا. ولمعرفته بي، رحب وفرح بتعييني في السماوة التابعة له. وقصَّ عليَّ طوال الليل عن حالة القضاء السيئة، وكيف أنه ذهب إليه قبل أسبوع وبذل جهودًا كبيرةً لعقد صلح بين الغربيين والشرقيين، ثم أخذ وعدًا منهم للمحافظة عليه لمدة شهرين، وما إن عاد حتى حنث أطراف النزاع بوعدهم وعادوا إلى

القتال، أوصاني طاهر بك بالعمل الجاد وبالتريث لإحكام سيطرة الدولة على شؤون القضاء. وفي صباح اليوم التالي ركبنا سفينتنا ورجعنا إلى الشامية وانحدرنا منها نحو السماوة حتى وصلناها بعد يومين.

## قضاء المشاكل

رست السفينة على شاطئ السماوة جنوب القشلة(9) مساء 8 آذار 1909. وكان في استقبالنا وكيل القائم مقام إبراهيم بك، ومدير المال إسماعيل الجميل، والقاضي أحمد أفندي الكردي، والمفتي والمدرس نوري أفندي الدهان، ورئيس البلدية حسن الإمامي. رحب بنا الجميع وأخذوني إلى دار القائم مقام، وأخذوا نساءنا إلى دار مفتي القضاء.

وبعد أن استقر المقام بنا، قام الوكيل وارتمى على (القنفة)(10) وقال: (أحمد الله وأشكره على الخلاص، وصل القائم مقام وانتهت مسئوليتي الصعبة التي أهلكتني) ثم وجه الكلام إليَّ، وقال: (يا بيك هذه السماوة مشكل أمرها، لا يرتاح فيها القائم مقام إلا بعد غروب الشمس. يدي على قلبي من الصباح حتى

المساء، لا أدري كيف ومتى تقع الكارثة، الحمد لله على وصولك، فقد أرحتني من المسئولية وألف الحمد لله)

وبعد أن تناولنا العشاء وشربنا القهوة، شاهدنا كتلة بشرية كبيرة تقترب منا في الظلام لم نتمكن من معرفة عددها. تقدم أحدهم إلينا ونحن في الإيوان، فصرخ الوكيل في وجهه سائلاً عما يريد، فأجاب: (بيك، هذا التاجر يوسف رجوان قام بتحميل سفينتين بالحنطة ويريد إرسالهما إلى البصرة هذه الليلة، والناس متجمهرة ثائرة وأخشى أن يهجموا على السفن وينهبوا ما فيها، ونحن نسترحم منك أن تمنع السفن من السفر) صاح الوكيل، قائلاً: (أخرجوا من هنا، السفن ستسافر ولن تتأخر، وسوف لن أسمع منكم أي كلام، أنتم أشقياء تريدون نهب التجار) وهنا تدخلت بلطف متوخيًا الحصول على بعض التفاصيل. أجاب الوكيل: (إن الذي أمامنا هو مختار الغربيين، جاء إلينا مع هؤلاء السوَقة) وعندما طلبت تأجيل هذه القضية إلى الغد، خاطب الوكيل الجماعة، قائلاً: (هذا قائم مقامكم الجديد فراجعوه غدًا) وكانت هذه

هي المرة الأولى التي يسمع بها أهل السماوة بوصولي.

وفي الليل، استمعت إلى أحاديث إبراهيم بك، الوكيل، الكثيرة عن السماوة. وانتهت سهرتنا وأنا متعب جسميًا من مشاق السفر، وفكريًا من أقاصيص الوكيل المخيفة التي أكدها الحاضرون.

وفي صباح اليوم التالي، اصطحبني وكيل القائم مقام ومدير المال إلى دار الحكومة، وكانت تقع على رأس الجسر من الجانب الكبير. قال الوكيل: (هذه دائرة القائم مقام، يصاحبك في الغرفة مدير المال وأحيانًا القاضي أو رئيس البلدية) وأردف قائلاً: (كان سلفي الوكيل السابق يبقى في داره ولا يداوم هنا، غير أني غيرت ذلك وصرت أداوم ساعةً أو ساعتين كل يوم) ثم قال: (إني أودعك الآن، فقد قررت السفر في السفينة التي جئت بها أنت) قلت له (لم هذه العجلة؟، إني محتاج لبقائك يومين أو ثلاثة للاستفادة من خبرتك) فأجابني بأنه لا يتمكن من البقاء ويريد التخلص من السماوة في أقرب وقت، وأخفقت في إقناعه وسلمني الشفرة وذهب.

ودعته بكثير من الاحترام، فإبراهيم بك هو من آل محمد باشا آل عبد الجليل الخديوي في الحلة، وهو والد زوجة السيد عبد الرحمن أفندي النقيب. كان عمره آنذاك ثمانين عاما، عيّن للسماوة لمعرفته بأحوالها ورجالها، وبقي فيها ثلاثة أشهر في وقت لم يقبل بالقائم مقامية أي شخص آخر لا أصالةً ولا وكالةً، رحمة الله عليه.

## إخراج الحنطة

غادر إبراهيم بك، ودخل عليّ المفتي والقاضي ورئيس البلدية مع ضابط الجندرمة توفيق بك، وكرر مختار الغربيين طلبه في الليلة الماضية، قائلاً: (إن الأهالي ينتظرون قراركم بشأن الحنطة) وأمرت رئيس البلدية بأخذ عضوين من مجلسه لإحصاء الحنطة المتوافرة في السوق بسرعةٍ وبشكل دقيق، وقدموا لي تقريرًا بعد ساعتين يتضمن أن الموجود منها لا يتجاوز سبعة أطنان فقط. لذا، أمرت قائد الجندرمة بأن يبلغ التاجر اليهودي يوسف رجوان، بقرار الحكومة بمنع سفر السفن واحتجاز أشرعتها والانتظار إلى الغد. ونفّذت هذه الأوامر بسرعة، وأرجعت الحنطة الى الأسواق، لحاجة السماوة الماسة لها، فلا يزال هناك شهر لحلول موسم الحصاد الجديد.

وقد علمت عند التحقيق في هذه القضية أن وراءها رشوةً مقدارها خمسٌ وعشرون ليرة ذهبية. وعند تبليغه المنع، أخذ التاجر رجوان يتوسل ويتضرع، ذاكرًا الأضرار التي أصابته، ولم أقتنع بصحة أقواله وهددته بالعقاب إذا لم يمتثل للأوامر.

وعندما علم الناس بإرجاع الحنطة، فرحوا واستبشروا. وكانت هذه القضية فاتحةً جيدة للثقة بالإدارة وبأسلوبها الجديد في التعامل مع الأحداث. وفي مساء اليوم التالي، وردت برقية من قائد الجيش في البصرة، تتضمن ضرورة إجازة سفر السفن لأن حمولتها من الحنطة تابعة للجيش. رفضت هذا الطلب وأجبت أن السماوة خالية من الحنطة وبحاجة لها. وفي اليوم التالي، وردت برقية أخرى من قيادة (الاوردي)(11) في بغداد شديدة اللهجة، تأمرني بإرسال السفن إلى البصرة، وكررت مرة أخرى رفضي لهذا الطلب. ثم تسلمتُ برقية ثالثة من الولاية أكثر شدة في محتواها، وأجبت عنها بالأسلوب نفسه، موضحًا الوضع المتأزم في السماوة. وهكذا أخذت المسؤولية على عاتقي، وسكت أخيرًا الوالي والقائد معًا، وانتهى الأمر بسلام.

## قصبة السماوة وأهلها

تقع قصبة السماوة على جانبيّ نهر الفرات، وقسمها الواقع على الضفة اليسرى يسمى جانب القشلة، وذلك لوجود القشلة الكبيرة التي بناها الوالي نامق

باشا الكبير(12) فيه، ويسكن هذا الجانب ضباط الجيش والتجار وقسم من فرقة (البوجامل)· ويحد السور هذا الجانب من الشمال· أما الجانب الأيمن، الواقع جنوب الفرات، فيسكنه أهل السماوة الأصليون، ويقسم إلى محلتين: الشرقي والغربي، يفصل بينهما سوقٌ كبيرٌ وطريقٌ يبدأ من رأس الجسر وينتهي بسور المدينة، الذي يحدّ هذا الجانب من الجنوب، أي من جهة بر (الشامية)· وكانت الأسوار قديمة بالية ومتهدمة، بنيت من الطين، وعملت على إصلاحها للدفاع عن المدينة أمام غارات العشائر المجاورة·

يسود نفوذ القائم مقام على محلة القشلة فقط، ويضعف هذا النفوذ على محلات الغربي والشرقي· ساد على محلة الغربي نفوذ رباط السلمان، أحد سراكيل(13) أراضي الخناق السنية، لكثرة أقاربه والمنتسبين إليه فيه· والمتنفذون في محلة الشرقي متعددون، أقدمهم طفار النعمة، وكان عند وصولي سجيناً في بغداد، ينوب عنه عبد الله الشاهر وصبار الحسين، وهم من الرجال الشجعان المجيدين للرماية·

وهناك متنفذون آخرون مثل عبد الله النايف، وصلاح كصيص من فرقة (المكارية) المتحالفة مع الشرقيين. والغربيون والشرقيون في نزاع مستمر يتقاتلون لأتفه الأسباب. وقد أدى ضعف الإدارة وتخوف المسؤولين من المتنفذين في هذه المحلات إلى تفاقم هذه النزاعات. كما كان المتنفذ في المحلة ينتفع شخصيا من النزاع، لحصوله على نصف الدية(14) المخصصة للمقتول من جماعته.

## أسلوب إداري جديد

تبنى المتصرفون وقائمو المقام وقادة الجيش من قبلي سياسة التوسط والاستعطاف لإنهاء القتال بين الغربيين والشرقيين، وقد فشلت هذه السياسة في تحقيق السلام وأفقدت الحكومة احترامها وهيبتها. وكمثل للاستهتار بالسلطة، الحكاية التالية: جاءني أحمد القادر، مختار الغربيين، بعد وصولي القضاء بيومين، يحمل كتابًا من رباط السلمان، رئيسهم، يشرح فيه اعتداءات الشرقيين عليهم طالبًا القبض على المعتدين وتأديبهم، وقد ختم الكتاب بعبارة (فلاح حضرته باد شاهي)(15) الشيخ رباط السلمان.

وسألتُ المختار متجاهلاً عمن يكون (الباد شاهي) هذا، وقلت له: إن كانت لديه شكوى فباب دائرة الحكومة مفتوح للمواطنين، ومزقت الكتاب ورميته بوجهه. وفي اليوم التالي، جاءني المختار بكتاب آخر من رباط السلمان ومزقته أيضًا قبل قراءته، وكرر ذلك مرة ثالثة وحذرته هذه المرة من العودة وأنذرته بعواقب وخيمة، فانقطع عن المجيء.

ومما أسهم في إضعاف هيبة الحكومة، موقف ضباط الفوج وأفراده، وتصرف آمره المباشر والسلبي بمنع أفراد القوات المسلحة من دخول منعطفات السور الكبير وأزقته، وتحذيره لهم من التدخل في الاعتداءات والجرائم التي تقع أمامهم، وعدم الابتعاد عن الشارع الرئيسي للسوق. وأصبح الأهالي يهزأون من الجيش وينشدون أهزوجتهم: (حيّة وما من سم بيها).

بدأت إدارتي للقضاء، بفتح باب بيتي لاستقبال المواطنين من مختلف الطبقات صباح كل يوم وقبل بداية الدوام الرسمي. أتاحت لي هذه الزيارات الاستماع إلى حكايات الناس وشكاواهم، واكتساب

خبرة ذات فائدة في معالجتي لقضاياهم. وقد أوحيت لزواري بأني مطلع على أحداث الماضي والحاضر وما خفي من الأمور، وعالمٌ بأسباب النزاع ودوافعه، وأسباب فشل الجهود المبذولة من رجال الإدارة والجيش السابقين لحسم الخلافات بينهم.

وفكرت بطريقة جديدة لإنهاء النزاع، وهددتُ باستخدام الفوج العسكري النظامي، بضرب الطرفين المتنازعين عند القيام بأي عمل يخل بالنظام ما دام التوسط بينهم لم يجد نفعًا. وطلبت من الشيخ حمود الحزام الطامع بالرئاسة إبلاغ أطراف النزاع بعزمي هذا، وأخذت أقوالي تنتشر بين الناس.

## العدالة العمياء

لاحظت عند مباشرتي الإدارة، أن السوق الكبير كان مقفلاً، والغربيون والشرقيون يوصدون أبواب دكاكينهم خوفًا بعضهم من بعض. وقد هرب الكثير منهم بعد أن حكم عليهم غيابيًا لمجرد تعرضهم لاتهامات خصومهم، وصدرت هذه الأحكام من غير تبليغهم بها أو إفساح المجال لهم للدفاع عن أنفسهم ضدها.

ظهر لي أيضا أن الناس قد اعتادت على إقامة الدعاوى بعضهم على بعض، وكان القاضي يضبط إفادة المشتكي والشهود سرًا في داره من غير تبليغ المتهم، ثم يطلب من ضابط الجندرمة تأييد كون المتهم غائبًا، ثم يرسل الأوراق إلى محكمة اللواء في الديوانية، التي تطلب بدورها استقدامه ليؤكد القاضي مرة أخرى هربه. فتصدر محكمة الديوانية أحكامها بالسجن أو حتى بالإعدام أحيانًا بدون علم المتهم. وعندما تنشر هذه الأحكام على الملأ في سراي الحكومة، يعم الرعب والفزع والهرب من المدينة. وكان القاضي هو المستفيد دائمًا من ظلم هذه

الأحكام، مستعدًا للإرضاء بالرشوة. وقد أدى ذلك بالطبع إلى شل الحركة التجارية بصورة كاملة.

## إعلان العفو العام

بعد أن عرفت أسباب خوف الناس، أعلنت العفو العام عن المحكومين غيابيًا، وطلبت من الهاربين والمشّردين الرجوع إلى أعمالهم، وأوعزت إلى رجال الأمن عدم التعرض لهم، إلا إذا خالفوا القوانين مرة ثانية وبعد صدور العفو العام.

كان قراري الإداري هذا شخصيًا بحتًا، لا يستند إلى قانون أو أمر من مصدر أعلى. كنت متأكدًا أن الحكومة عاجزة عن القبض على الهاربين أو المحافظة على المعتقلين والمسجونين، فإن قوة الجندرمة التي لا يتجاوز عددها العشرين جنديًا كانت غير كافيةٍ لذلك. وفي وقت كان فيه الجيش يمتنع عن مساعدة الإدارة في إجراءاتها القضائية.

كان أكثر المحكومين هم من الفقراء، ذهبوا ضحايا للإجراءات الخاطئة غير القانونية، وكنت واثقًا أن العفو العام سيطمئن أكثرهم للرجوع إلى أعمالهم وسيشجعهم على تحسين سلوكهم.

زارني في داري، بعد إعلان العفو بيومين، كل من عبد الله الشاهر وجبار حسين من رؤساء الشرقيين ومعهم رهط من رجالهم المسلحين، وأكدتُ عليهم ضرورة الاستفادة من العفو العام، فوعدوا بالطاعة والامتثال للقرارات الجديدة، وتركوني وألسنتهم تلهج بالشكر والثناء.

وبعد ثلاثة أيام، جاءني مختار الغربيين، ونقل لي رغبة رباط السلمان بزيارتي، ورجاني أن أسمح له بذلك. حضر رباط ومعه اثنان من أتباعه، واعتذر عن عدم مجيئه سابقا لتخوفه من الشرقيين، وأكد لي طاعته للحكومة وشكرني وانصرف. وتوافد الناس بعد ذلك على دوائر الحكومة وهم مغتبطون شاكرون. كما أشاد متصرف اللواء رشيد بك بإجراءاتنا الجديدة.
وما إن استقر الوضع حتى توافد المظلومون عليَّ يسردون حكاياتهم: فهذا كاتب عرائض اختفى لمدة سنة كاملة من حكم لم يعرف سببه، وبقال في السوق توارى عن الأنظار من حكم غيابي حرمه من عمله لغير سبب. ولفيف من التجار قالوا إنهم كانوا ضحية عملية ابتزاز من بعض المحتالين، الذين وعدوهم

بالتوسط للتخلص من أحكام مجحفة.

طلبت من متصرفية اللواء تنحية القاضي عن القضاء وإنقاذنا منه، فاستدعته لمدة وجيزة وأرجعته بعدها لإكمال مدة خدمته المقررة، والتي هي سنتان ونصف، وصرت خلالها أراقبه مراقبةً دقيقة، ومنعته من النظر في الدعاوى المقدمة إليه قبل اطلاعي عليها.

وبعد مرور شهرين، تم إعلان الدستور، وجلوس السلطان محمد رشاد على العرش. وبُلغنا بإعلان العفو العام رسميًا، فاستبشر الناس جميعًا. وفي 14 نيسان 1909، تأسست لجنة للتنسيق، وأصدرت أمرًا يعزل القاضي، وكان ذلك نهاية لأحكامه الجائرة.

## تخاذل القوة العسكرية

بعد أن استتب الأمن داخل السماوة، أردت جمع الرسوم من ملاك البساتين، شرقيين كانوا أم غربيين وبصورة تدريجية. فصندوق المال خاوٍ، ورواتب الموظفين تردنا من اللواء. طلبت من ضابط الجندرمة القيام بهذه المهمة، فأجابني: بأن ليس لديه سوى ثمانية جنود مشاة فقط، أحدهم مكلف بحراسة الموقف، واثنان بحراسة دار الحكومة، والبقية لتنفيذ

قرارات المحكمة. فأمرت الضابط باصطحاب جنديين من قوته لجمع الضرائب، وقام بواجبه بشكل جيد حتى وصل إلى كرود(16) (حرب) وهي آخر نقطة من بساتين الغربيين. كان حرب منشغلاً بدوس(17) الشتوي، وعند مطالبته بالرسوم أجاب الضابط، قائلاً: (كيف تتجاسر وتأتي إلى هنا وتطالبني بالضرائب؟) وأخذ يضرب الضابط وجنوده بالمراوح(18). وجاءني الجندي يخبرني بما حدث ومعه الضابط الجريح. فصحبتهم إلى مقر الفوج حيث كان الضباط مجتمعين يشربون القهوة، وطلبت من قائدهم الاستماع إلى حكاية الضابط وهو يسردها بالتفصيل. وعند انتهائه، قال القائد: (هذا ما قلناه ونبهنا عنه وحذرنا الفوج منه)، ثم قال لي: (يا بك أنت لا تعرف أهل السماوة وعشائرها، إن الدخول معهم في نزاع يؤدي إلى عواقب وخيمة) وأجبته غاضبًا: (كيف يمكنك السكوت على إهانة ضابط الجندرمة وجنوده أثناء قيامهم بواجبهم؟ إن من الواجب عليك أن ترسل قوة الآن لتأديب المعتدين) وامتنع القائد، قائلاً: بأنه لن يرسل جنديًا واحدًا، وهو

غير راغب في الاشتباك والقتال مع عشائر السماوة.
أجبته: إن من العار على الجيش وقائده التهرب من حوادث بسيطة كهذه، ومن الخزي أن ينزوي الجيش المدجج بالسلاح في ثكنته، يأكل ويشرب ولا يغضب للإهانة، وهو المسؤول المباشر عن المحافظة على الأمن وهيبة الحكومة. سألته: كيف يمكنه معاملة أفراد قوته كالأطفال ويمنعهم من التجوال في أزقة السوق خوفًا من الأشقياء والعابثين؟ وقلت له: (هذا عار لا يرضى به الضباط ولا الجنود) وتركت الثكنة غاضبًا وفي غاية التأثر، وقررت توجيه كتاب شديد اللهجة له، طالبًا منه التدخل فورًا.
وشاهدت بعد رجوعي إلى مكتبي، مفرزة من الجيش تعبر الجسر متوجهةً إلى السراي، وأقلقني ذلك.
تصورت أن المفرزة قد أرسلت لإهانتي كما كان يحدث كثيرًا في تلك الأيام، فقد اعتاد الجيش الهجوم على مقر الحكومة كلما لم يتسلم مخصصاته ليعتقل القائم مقام ومدير المال. وقررت الدفاع عن نفسي، فطلبت من مرافقي أن يستعد بسلاحه وأمسكت بيدي عصًا، منتظرًا وصول المفرزة بقلق.

وما إن وصلت المفرزة حتى انفصل عنها اليوزباشي خيري أفندي، وأدى التحية العسكرية، وقال بأدب بالغ: (إن جميع الضباط قد تحمسوا عند سماعهم كلامك، واعتبروا أن الإهانة كان سببها القائد، ولذا قرروا تنحيته عن منصبه وإناطة قيادة الفوج إلى (القول أغاسي)(19) أمين أفندي، الذي أمرني باصطحاب خمسة وثلاثين مسلحًا ليكونوا رهن إشارتك، ولينفذوا أوامرك. شكرته، وطلبت منه القبض على المعتدين ومصادرة حاصلاتهم، وإعلامي إن كانت هناك حاجةٌ إلى إجراءات أخرى. نفّذ الضابط واجبه بسرعة، وشاهدت النيران تندلع من منطقة التمرد، ونُقِلَتْ الحاصلات المصادرة إلى السماوة، وبيعت علنًا واحتسبت قيمتها على ديون المعتدين إلى الدولة، واعتقلنا أحد المعتدين، وطلبت من رئيس الغربيين اعتقال البقية منهم حالاً، وإيداعهم السجن انتظارًا لمحاكمتهم. كما طلبت من الولاية تنحية قائد الفوج وإسناد القيادة إلى معاونه الشيخ السيد أمين. ثم زرت الفوج، وشكرت قيادته الجديدة على موقفها. وقد أثرت هذه الإجراءات السريعة تأثيرًا كبيرًا في

استقرار الأمن في القضاء، ولم يقع بعد ذلك حادث يذكر لمدة سنة ونصف، أي حتى تسلم ناظم باشا ولاية بغداد(20).

وبعد فترة وجيزة، استبدل الفوج بفوج ديالى، وهو من صنف (الرديف): الاحتياط تحت إمرة قادة حريصين على سمعة الإدارة، منهم: (البكباشي) حسين أفندي القهوجي، و(القول أغاسي) الأركان زكي بك.

وعندما علم ضباط القوة الجديدة بأني أقوم بنفسي بالإشراف على أعمال الحراسة والدورية ليلاً، طلبوا مني أن يقوموا هم بهذا الواجب عوضًا عني، وهكذا أخذ الجيش يتعاون مع الإدارة بشكل تام.

## سراق وسرقات

بعد أن استقر الصلح بين الغربيين والشرقيين، نهب أحدهم مسبحة من يد دلال كان يعرضها للبيع في السوق. والسارق كان من الغربيين واسمه حسن بن حسين ويلقب (بأبي الذهب)، وهو من ذوي السوابق. وعندما أحضِروه أمامي، وقف خائفًا وهو يرتجف. سألته: لماذا قام بهذا العمل وهو محكوم غيابيًا من قبل؟ لم يجب بكلمة واحدة، فأمرت باعتقاله. وفي

طريقه إلى القشلة وعلى منتصف الجسر، ألقى بنفسه في النهر وأخذ يسبح مع التيار. فأمرت أفراد الجيش والشرطة بأن لا يعطوه مجالاً للخروج من الماء، حتى أنهكه التعب فسلّم نفسه وأودع السجن، ثم أرسل إلى الديوانية مع أوراقه السابقة وحكم عليه بالسجن ثلاث سنوات، وهكذا أصبح عبرة لغيره. وعلِمتُ مؤخرًا أنه أصبح مختارًا لمحلة الغربيين في سنة 1956.

وبعد أن استتب الأمن بثلاثة شهور، جاءني في أحد الأيام التاجر اليهودي يوسف رجوان والاضطراب بادٍ عليه، وهمس بصوت خافت، قائلاً: إن قاصته الحديدية قد كُسرتْ ليلاً وسرق كل ما فيها من مال وأمانات كثيرة للناس، وإنه الآن خائف على حياته إذا ما عرف المعتدون أنه راجعني شاكيًا. طمأنته، وأرسلت قائد الجندرمة للتحقيق قي الجريمة. وظهر أن القاصة قد كُسرتْ بطلقات نارية، وأن الحارس المكلف بحراسة الخان كان غائبًا تلك الليلة، منيبًا عنه شابًا هرب بعد الحادث.

استدعيت رئيس الغربيين وطلبت منه إحضار الحارس

الشاب. وبعدما أحضره طلبت أن يتركه معي ومع القاضي. أدخلته الحرم في بيتي وأوثقته بإحكام على عمود الشرفة، وأخذت أسأله عن السرقة، فأنكر. وهددته تهديدًا عنيفا، والقاضي يتوسل إليّ لتركه. وبعد ساعة من الزمن اعترف بجريمته، ووعد بإرجاع المسروقات، لكنه لم يعترف بأسماء المشاركين معه، زاعمًا أنه سيُقتلْ إن أفشى أسماءهم. وأخذت وعدًا منه بأن لا يعود للسرقة مرةً أخرى، وأطلقت سراحه بعد أن زودته ببعض المؤن. وفي اليوم التالي جاءني التاجر شاكرًا.

# الشيخ حمود الحزام

قال لي الوالي، نجم الدين منل، قبل سفري إلى السماوة: (إن في بغداد رجلاً اسمه حمود الحزام يدعي أنه رئيس (بني حجيم)(21) وهو يطالب بتجديد رئاسته، ويتعهد بإصلاح الحالة في السماوة إذا ما زودناه بمئتي جندي خيال، أريدك أن تتصل به فما هو رأيك؟) أجبته بأني لا أعرف الرجل، وأرغب بلقائه.

وجاءني الشيخ حمود وبدا واثقًا من نفسه، وكرر طلبه للقوة العسكرية، ووعدته بتنفيذ طلبه. عرفت منه أنه ينتسب إلى عشيرة (آل محسن)، وهم من أشراف مكة وموضع احترام (بني حجيم). وسبق للعشيرة أن اختارت شقيقه (محمد الحزام) لرئاستها عوضا عنه لمدة من الزمن.

أقنعني الشيخ حمود بمقدرته على المساهمه في توطيد الأمن، واقترحت على الوالي تكريمه، فأنعم عليه بـ(الخلعة) وألبسه (الكسوة)(22) قبل أن يسافر إلى السماوة. ومنذ أيامي الأولى في القضاء، خصصت له محلاً لسكناه في مخزن حبوب السنية،

الواقع في الجانب الجنوبي، وزودته بتعليمات خاصة. ونتيجةً لجهوده وتعاونه، تمكنت من التعرف على رؤساء (بني حجيم) التي كان رجالها لا يثقون بالحكومة ويتخوفون منها ولا يأمنون زيارة القضاء. منحتهم الأمان، فبدأوا يترددون على المدينة، وأخذ الكثير منهم يراجعونني لالتزام الحاصلات الشتوية والصيفية.

كان أفراد العشائر يستغربون من زيارتي لهم خارج المدينة منفردًا ومن دون حماية، ولا يصدقون أن من يزورهم هو القائم مقام المسؤول، حيث لم يسبق لهم معرفة قائم مقامٍ يتصرف بهذا الأسلوب من قبل.

ومكنتني هذه الصلات من الحصول على واردات جديدة للدولة من عشائر (البو جياش) و(العبس) و(الزياد) و(الجواير) و(البركات).

جاءني الشيخ حمود في أحد الأيام يخبرني بأن الغربيين والشرقيين قد عقدوا صلحًا بينهم، ويرغبون في إجراء (عراضة) أي: مظاهرة أمام داري إعلانًا لهذا الاتفاق، ووافقت على ذلك. واستعرضتْ أمامي جموع مسلحة مع رؤسائها وهي تردد الأهازيج

المعروفة مثل (يا سيد جدك يحميها) و(يا سيد دارك مأمونة). استغرقت المظاهرة ساعتين انقضت بعدها بسلام، وجموعها فرحة بالوعود التي قطعتها لهم بمزاولة أعمالهم بحرية وأمن.
وحفظًا للسلام، أمرت بمنع التجول بعد العاشرة مساءً وحتى الفجر. وأخذت على عاتقي تفتيش محلات الشرقي والغربي بعد منتصف الليل، مكتفيًا بالضرب بالعصا كل من يخالف منع التجول. كان هذا هو خياري الوحيد للعقاب لأننا كنا نفتقر إلى وجود سجنٍ في السراي وحرسٍ لحمايته.
بقي حمود الحزام شهرين في السماوة. وبالرغم من خدماته الكثيرة، لم تستجب الولاية لطلباته المتكررة لتخصيص مكافأةٍ له تغطي راتبه ومصاريف إدارته، مما جعلني أساعده من مالي الخاص. وربما كان سبب ذلك تبدل الولاة السريع في بغداد.
غادر الشيخ حمود السماوة إلى قرية الدراجي(23) وهو مريض، ثم توفي هناك عند نشوب القتال بينه وبين عمه، عاجل الدبي.

## قتال بين الأقارب

بعد أن تسلم الولاية الفريق ناظم باشا بعشرين يومًا، نشب قتال بين حمود الحزام وعمه عاجل سببه خلاف حول ملكية الأراضي، سقط نتيجته عشرة قتلى.

وذهبت إلى مضارب هذه العشائر لإصلاح ذات البين، مستصحبًا معي رؤساء من (بني حجيم) كرئيس (الصفران)، معجون الحمادي، ورئيس (الزياد)، بندي الضامن، والسيد جابر الحافظ.

وعند مرور سفينتنا أمام شاطئ عشيرة (العبس) هددتنا وحاولت منعنا من المرور، وذلك لعداء سابق بينها وبين معجون الحمادي الموجود معنا. وبعد أن أفهمناهم قصدنا ووجهتنا، سمحوا لنا بالمرور.

ووصلنا ناحية الدراجي وبتنا فيها ليلةً واحدة عند عاجل الدبي، ثم قضينا ليلتين عند حمود الحزام، وتمكنا من إزالة الخلاف وعقد الصلح بينهما، وأخذنا منهما التعهدات اللازمة للمحافظة على السلام.

وبعد مرور شهرين على هذا الاتفاق، هجم جماعة عاجل الدبي على دائرة البريد في الدراجي، وحطموا آلة البرق فيها لأنها (تكرش) عليهم أي بمعنى: تنقل الأخبار وتتجسس عليهم. وكتبت للولاية عن هذا

الحادث، فوعدت بإرسال أفرادٍ من الجيش لتأديب هذه العشيرة. أجبت: بأن قوةً كهذه لا تجدي نفعًا، لأن عشائر (المنتفك)(24) متحالفة مع عاجل، وولدهُ (نايف) يترأس إحدى عشائرها. وحمود الحزام متحالف مع عشائر( بني حجيم)، ولهذا هناك حاجة إلى قوة لا تقل عن أربعة أفواج ومئتي خيال. ولم يردني جواب من الوالي الفريق على طلبي، قبل تركي قضاء السماوة.

## الفوج يترك السماوة

أقلقني أمر الوالي الفريق ناظم باشا بسحب الفوج إلى بغداد. أخبرني بهذا القرار آمر الفوج، الضابط الركن زكي بك، قبل تحركه بيوم واحد. وبعد رجوعي من توديع الجيش، رأيت في طريقي إلى السراي رجلاً جريحًا ، ودلالاً نهبت منه عباءةٌ كان يريد بيعها، وبزّازًا يهوديًا يبكي لفقدان قماشٍ سلبوه منه. وكانوا جميعهم يرددون قول المعتدين بأن الحكومة قد ولت بذهاب الجيش وليس هناك خوف من الحكومة.

تألمت كثيرًا لهذه الأوضاع المستجدة، وقررت منع الفوضى مهما كلفني الأمر. أخذت بضعة جنود من

الجندرمة معي إلى السوق، وجلست في محل (البهبهاني)، صاحب ماكنة كبس الصوف، والغضب بادٍ على وجهي. وتجمع الناس من حولي منتظرين ما سأفعل. طلبت حضور المختارين ورؤساء المحلات، وأحضرت كذلك المعتدين وطلبت إلقاءهم أرضًا، وبدأت أضربهم بعصايَ واحدًا بعد الآخر، ولم أتوقف حتى رجاني رؤساؤهم بالعفو عنهم. وكنت أردد عند ضربي لهم: (أتعتقدون أن الحكومة قد ولّت؟ كلا إنها لا تزال هنا وهي أقوى من قبل، وسوف لن أسمح لأحد بمخالفة القانون)

ووصلتنا أخبار آنذاك عن أعمال الوالي الفريق ناظم باشا التي تبهر العقول، ومنها سياسته في جمع القوات العسكرية في بغداد، استعدادًا لضرب أي تمرد ضد الدولة وأينما يقع وأعمال رائعة أخرى.

## مغادرة السماوة

تعاقب على ولاية بغداد أثناء عملي في السماوة عدة ولاة لم تتح لي الظروف مقابلتهم. وكنت كلما أسمع بتعيين والٍ جديد، أقدم طلبًا للإجازة ويرفض الطلب. وكان رفض الولاة يتضمن دائمًا الإشادة بأعمالي

والشكر والثناء عليَّ وتشجيعي على الاستمرار في عملي.

وكان قد صدر أمرٌ من الهيئة الإصلاحية بتثبيتي في القائم مقامية براتب جديد قدره ألفا قرشا، عوضًا عن الألف وسبعمائة وخمسة وعشرين قرشًا، راتبي السابق، وذلك في 11 شباط 1910.

قدمت إلى الوالي ناظم باشا، بعد مرور شهرين على ولايته، طلبًا لنقلي من قضاء السماوة بعدما أصابني الكثير من الإرهاق، وجاءتني الموافقة على نقلي إلى قضاء (الجزيرة) أي: الصويرة بعد عشرة أيام. فرحت كثيرًا وكتمت الخبر عن أهل السماوة خوفًا من معارضتهم. وبقيت أنتظر وصول بديلي، سلطان بك الجبوري، القائم مقام الجديد.

إلا أن الكتمان لم يدم طويلاً وشاع الخبر بين الناس، فتجمهروا أمام السراي، يرجون عدم مغادرتي، وهددوا بالعصيان والاحتفاظ بي مهما كلفهم الأمر. وبذلت جهدًا في تهدئتهم، مبينًا لهم أن القائم مقام الجديد هو من رؤساء العشائر، وسيسلك الأسلوب نفسه الذي عملت فيه في إدارة القضاء.

وعند وصول خَلفي، غادرت في السفينة (آغا جعفر) إلى ناحية (الشنافية)· وكان في توديعي جمع غفير من المشايخ والتجار وأهل البلد· وشكرت الله عز وجل على خلاصي من هذا القضاء الذي لم أرتح فيه يومًا واحدًا·

بقيت في بغداد أسبوعًا، قابلت فيه المسئولين، وقمت بخدمة أخي عبد الرحمن الذي كان يشكو من مرض شديد في يده· ثم سافرت بالباخرة النهرية إلى (الجزيرة)·

# الفصل السادس
# قائمَ مقامٍ لقضاء الجزيرة
# ((الصويرة

## في قضاء الجزيرة

باشرت عملي الجديد في 14 أيلول 1910، وكان مركز القضاء قد نقل إلى موقع الصويرة الحالي من موقعه السابق شرق ترعة (حمد) في المنطقة المسماة (سوييط). واتفق القائم مقام السابق طالب بك وقائد الجندرمة إسماعيل أفندي جاجان والأهلين على نقل المركز إلى موقعه الجديد، لأن الموقع القديم كان محدود المساحة لا يسمح بالتوسع والرطوبة عالية فيه. وخططوا الموقع، فخصصوا مناطق لدور السكن وباشروا ببنائها، كما شقوا طرقًا مستقيمةً وبنوا سوقًا كبيرةً وجامعًا ومحلات تجارية . جرى كل ذلك من غير إعلام الولاية وموافقتها. ثم اكتظ القضاء بالمهاجرين من الحلة بعد انهيار سدة الهندية وجفاف نهر الحلة(1).

يقع قضاء الجزيرة على الساحل الأيمن لنهر دجلة

ويحد بغداد من الشرق، ومجموع نفوسه خمسة عشر ألف نسمة معظمهم من عشائر الزبيد. وفي مركز القضاء ستمائة دار وثمانون دكانًا وثلاثة آلاف نسمة من السكان. تحيط بالمركز أراضٍ زراعية ومضارب عشائر (بني عجيل) و(الجحيشات). ويقابل المركز أراضي قضاء العزيزية على الساحل الأيسر لدجلة. ويلتحق بالقضاء ناحية واحدة اسمها (أعيوج).

**إنارة القضاء**

كان لموقع الصويرة أهمية كمرفأ نهري لارتفاع أرضه ولسهولة استعماله كمرسى للبواخر. وبالرغم من أهميته هذه، افتقر المركز للإنارة الكهربائية، فاقترحت على رئيس البلدية ، الحاج حسن اللبان، أن يشتري خمسين فانوسًا تصرف تكاليفها من صندوق البلدية الذي كان يحتوي آنذاك على مائة وخمسين ليرة ذهبية. رفض الحاج حسن هذا الاقتراح، محتجًا بأن الميزانية مخصصة لأمور التنظيف وإعانة الفقراء ونقل الجنائز إلى النجف الأشرف، وعبثًا حاولت إقناعه بأن التنوير هو من أولى واجباته.

كان رئيس البلدية رجلاً متدينًا ، إلا أنه كان يستغل

أموال البلدية لأعمال تجارية. ونتيجة لضغطي عليه، قدم استقالته، فأسندتُ رئاسة البلدية إلى الملا علي الحلاق، أكبر أعضاء مجلس البلدية سنًا، وأرسلته حالاً إلى بغداد ليشتري الفوانيس، فأحضر لنا خمسين فانوسًا كبيرًا كلفت البلدية أربعمائة قرش فقط، أي: أقل من أربع ليرات ذهبية. علقت هذه الفوانيس في طرق البلدة وفي الأسواق وعلى ساحل النهر، وتفاجأ ربان البواخر برؤية شاطئ الصويرة يتلألأ ليلاً، وراودهم الشك فيما إذا كان ما يشاهدونه هي الصويرة نفسها، وتوافدوا عليّ يشكرونني على عملي.

## جمال باشا في الصويرة

بعد قيامي بحسم الخلافات الكثيرة على حدود الأراضي والمقاطعات الزراعية، وجهت اهتمامي إلى تطوير المدينة وبناء دور سكن لاستيعاب المهاجرين الكثيرين من الحلة.

ولانعدام وجود الأشجار والنخيل، شجعت مالكي الكرود والأراضي على الإكثار من زرعها، حيث لم يكن في القضاء آنذاك إلا بستان واحد هو بستان

الخضيري. وواجهت معارضةً شديدةً من مأمور(طابو) القضاء، الذي كان يقتلع الأشجار ويعارض كذلك في توزيع الأراضي على المواطنين. والغريب أنه تمكن من الحصول على أمر من إسطنبول يؤيده على ضرورة قلع الأشجار، واعتبرني مسئولاً عن التنفيذ .

ومن حسن الصدف أن يمر الوالي جمال باشا(2) بالقضاء وهو في طريقه إلى الكوت. انتهزت هذه الفرصة وأخذته إلى سطح دائرة القائم مقام، وقلت له: (إن البلدة لم تكن خضراء بهذا الشكل عند قدومي إليها، والآن تطلب نظارة (الطابو) مني، قلع هذه الأشجار اليانعة والمثمرة، وتطالب كذلك بأجور باهظة عن دور السكن) أبدى الوالي سروره لآرائي في تطوير القضاء، وطلب مني أن أقدم مقترحًا للولاية بجعل سعر المتر الواحد من الأراضي المبنية بعشرة فلوس، والمتر من الأراضي المزروعة بالأشجار بعشرين فلسًا. وبعد مرور شهرين وافقت نظارة (الطابو) على مقترح مجلس الولاية المؤيد لمقترحاتنا، ومنح الغارسين وأصحاب الدور أوراق (طابو)

بالملكية، وعم الفرح على الجميع. وعلمت مؤخرًا أن ما غرسناه في ذلك الوقت أصبح الآن بساتين عظيمةً، تمتد من مركز القضاء وحتى بستان (الخضيري) في ضواحي المدينة.

وفي مجال الخدمات البلدية، واصلنا شق الطرق في البلدة، وبنينا دارًا كبيرةً لدائرة ناحية (أعيوج)، وجناحًا لسكنى مديرها بمبلغ ثمانٍ وتسعين ليرةً، جمعناها كإعانات من المزارعين. وقد سميت هذه الناحية بعد الاحتلال البريطاني بـ(الزبيدية).

## خدمات للبرق والبريد

كانت الصويرة تفتقر إلى خدمات البرق والبريد. وكانت هذه الخدمات تصلها عن طريق قضاء العزيزية بصورة غير مباشرة، وهو يبعد عن قضائنا بنحو خمس ساعاتٍ. ونتيجة لمراجعاتي المتكررة، وافقت الولاية على مد خط للتلغراف من بغداد سنة 1913. وكان أول من شغل مأمورية البرق والبريد هو أحمد بك آل شعبان باشا.

وقد تفضل الشاعر خيري الهنداوي بنظم الأبيات التالية:

أنشأ خط البرق في قطرنا

من هـو حصـن للمعـالي حـريـز

يـــا طـــالبـًا رمـــزًا لآثـــاره

هـي التي تكشف فيها الرموز

يـكفـيك أن تـرمـز تـاريخـها

البـرق مـن آثـار عبـد العزيـز

333 90 703 76 125 سنة 1327

## حريق في السوق

كنت في بيتي مساء يوم 25 آذار 1912 مع بعض

الضيوف، وإذا بالخادم يصيح: (السوق يحترق) فأسرعت مع بعض الموظفين وصعدنا على سقف السوق من السلم المحاذي إلى (علوة جاسم)(3)، وأخذنا نحطم السقوف الخشبية المحترقة، محاولين إيقاف سريان الحريق، حتى نادانا رجل من الجهة المقابلة محذرًا بأن السقف تحتنا على وشك الانهيار، وما إن تراجعنا عن موقعنا حتى انهار السقف كليًا ونجونا من هلاك محقق.

كان سبب الحريق فانوس الحارس النفطي الذي أضرم النار، فتسربت بسرعة لتلتهم جميع الدكاكين وتقضي على السوق بأكمله. ومن حسن الحظ أنه لم تكن هناك خسائر مالية كبيرة لأن البضائع قد نقلت من السوق بسرعة. ومن المؤسف أن يكون الحريق قد قضى على أحد الحمالين المساكين وهو ينقل قاصة حديدية من أحد الدكاكين.

## البو سلطان والزبيد

على أثر قتال عنيف بين عشيرة (البو سلطان) و(الزبيد)، أمرت الولاية الجيش بإزاحة عشيرة (البو سلطان) من أراضيها في (الغبيشي) و(أم الجكاير)

ومن أراضي السنية في(البغيلة)، وأسكنتها أراضي في الحلة.

وفي زمن ولاية ناظم باشا، طالب رؤساء (البو سلطان) : عداي الجريان والهيمص العباس، بإعادة أراضيهم السابقة، فشكلت لجنة من قائم مقامي الكوت والجزيرة ومدير أراضي (البغيلة) السنية وضابط من الجيش، معتمدًا من الوالي لهذا الغرض. ولم تتوصل هذه اللجنة إلى حل متفق عليه، لمعارضة عضوها مدير أراضي السنية، وهو تركي الأصل.

وكان المحرض الرئيسي لعدم الاتفاق هو قائد الجندرمة في الكوت، وبرفقته ثلاثون جنديا، وهو ليس عضوا في اللجنة. وزاد الموقف توترًا تظاهر فرقة (الدليم) من عشائر (الزبيد)، وإحاطتها بمقر اجتماعنا، وهي تحتج و(تهوس)(4)، عارضةً لنا عظام وجماجم شهدائهم في القتال الماضي، قاصدين بذلك استدرار عطف أعضاء اللجنة ورئيسها.

وفي اليوم الثالث من اجتماعنا، عرضت عليهم مشروعًا يقضي بترك عمود نهر (الغبيشي) من دجلة حتى انعطافه، إلى عشيرة (الدليم) من (الزبيد)، ومن

اعوجاج النهر حتى (البزايز)(5)، إلى عشيرة (البو سلطان)· على أن ينشأ عمود جديد، أي: نهرٍ موازٍ للنهر الأصلي، بطول ثلاثمائة متر، ليكون الخط الفاصل بين العشيرتين· وبهذا أرجعت أراضي (الغبيشي) و(أم الجكاير) وقسمًا من الأراضي السنية في (البغيلة) إلى (البو سلطان)، وتركت الأراضي الواقعة غرب نهر (الغبيشي) ، إلى (الزبيد)، بشرط أن تقوم بصيانة (بزايز) النهر كلما احتاجت إلى ذلك·

وافقت اللجنة على مقترحي هذا وخالفه مأمور السنية وحده، فلم نتمكن من الوصول إلى اتفاق بالإجماع حتى طلبت إقصاء قائد الجندرمة عن مقر اللجنة، فهو لم يكن من أعضائها وليس له حق التدخل في قراراتها أو التأثير على أعضائها·

وبعد التوقيع على القرار، أخذت عشيرة الزبيد تهوس وتظهر عدم رضاها، إلا أن اللجنة لم تلتفت لها، وانتهى الأمر بإسكان البو سلطان في الأراضي المخصصة لها، بعد أن حفرنا الجدول الرئيس لنهر (الغبيشي)، وانتهت القضية بسلام·

## رئاسة الزبيد

إن معظم سكان الصويرة هم من عشيرة (الزبيد) ما عدا فرقة صغيرة من عشائر (الجبور) تسكن منطقة الديوانية في القضاء. وعندما توليت أمور القضاء، كان رئيس (الزبيد) هو الشيخ عجيل السمرمد، وهو شاب طموح ذو هيبة ووقار، عرف بأطماعه بممتلكات أفراد عشيرته. كنت أسمع عنه مثلاً أنه إذا ما شاهد فرسًا جميلةً أو بقرةً ممتازة طلبها من مالكها بلا مقابل، كما كان يستوفي ضرائب حكومية من عشيرته أكثر مما هو مكلّف بجمعها، محتفظا لنفسه بالزائد منها. وكان يغدق الرشاوى على الموظفين ثمنًا لسكوتهم على أعماله. طلبت منه مرارًا أن يحسن معاملة أفراد عشيرته وأن ينصفهم، ووعدني بالامتثال لنصائحي، لكنه عاد مرةً أخرى لأسلوبه المعتاد، وقد أدى ذلك إلى تذمر رؤساء عشيرته فطلبوا من الحكومة أن تحميهم منه وأن تقصيه عن الرئاسة.

وبعد مرور سنتين، اضطررت لعرض هذا الموضوع على الوالي، المشير زكي باشا(6)، فأمر بإجراء

انتخابٍ لرئيس غيره. واجتمع السراكيل ورؤساء الفرق وانتخبوا ابن عمه مطلك الداود بالأكثرية، وكان أكبر سنًا من الشيخ عجيل. وعلى أثر انتخابه، طلبت الولاية حضوره إلى بغداد لإلباسه الكسوة. ومن الصدف الغريبة أن يموت الشيخ مطلك في الليل بعد أن كساه الوالي لباس الرئاسة في النهار.

أخبرتني الولاية بهذا الحدث الغريب، وطلبت ترئيس ابنه عاصي المطلك محله، فأجرينا المراسيم المعتادة، واستمر برئاسته للعشيرة حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى؛ فأعاد القائد العثماني العام، نورالدين باشا، عجيل السمرمد، إلى رئاسة العشيرة ثانيةً تقديرا لخدماته التي قدمها للقوات العثمانية أثناء حصارها للكوت. واستمر الشيخ عجيل في رئاسته تحت الاحتلال البريطاني أيضا وحتى وفاته.

وفي زمن الاحتلال، زارني الشيخ عجيل في داري في بغداد بصحبة حاكم الصويرة (الميجور جفريز) طالبًا موافقتي على تعييني قائم مقام للصويرة، فرفضت. ثم أعاد طلبه مرة أخرى، مستصحبًا معه (الكابتن بري)، ورفضت أيضًا. وكان يرغبني بالقبول

على أساس أن الحاكم السياسي سيترك الصويرة والإنكليز يرغبون بتعييني محله. كان سبب رفضي المتكرر هو عدم رغبتي في قبول أي منصب إداري تحت ظل الاحتلال الإنكليزي.
شعرت عند هذه الزيارات أن الشيخ عجيل قد أصبح ذا دراية وخبرة وحنكة بارزة متميزة عن غيره من رؤساء العشائر، اكتسبها مع الوقت، مما دعا السيد عبد الرحمن النقيب، رئيس أول وزارة عراقية، إلى أن يكلفه بأن يكون وزيرًا فيها.

## واردات الأعشار

كان قسم من أراضي الصويرة يروى سيحًا في موسم الفيضان، ويستوفى منه حصة للحكومة بنسبة الخمس، أي: عشرين بالمائة. والقسم الآخر أراضيه عالية، محاذية لنهر دجلة، وتسقى بوساطة الدواليب الرافعة: (الكرود)، ويستوفى منه العشر، أي: عشرة بالمائة. وتتكلف الولاية بتخصيص ألف قرش، أي: عشر ليرات، لتحكيم السدود كل سنة اعتبارًا من شهر تشرين الأول، ويتكلف المزارعون بتطهير الأنهار والجداول. ونتيجة لهذه الإجراءات، لم يحصل أثناء

وجودي في القضاء لمدة أربع سنوات أي كسر في هذه السدود.
أدى الفساد الإداري إلى تخمين الحاصلات الزراعية بأقل بكثير من الواقع، وبالتالي كانت الواردات قليلة جدًا، وربما كانت أقل من عشر مما يجب تحصيله.
وفي السنة الأولى، خرجت بنفسي لتخمين الحاصلات الشتوية، مستصحبًا خبراء ماهرين كالسيد صالح الهنداوي والشيخ عبد المجيد رئيس (الجحيش) وغيرهما، وتأكدنا أن التقديرات كانت قليلة جدًا مما أضر بحق الدولة، فزدنا التقديرات. وكمثل لذلك كانت مقاطعة (بدعة حمد) مقدرة بثلاثمائة ليرة، فيما بلغ تقديرنا لها ثلاثة آلاف وثلاث مائة ليرة.
وعندما عرضنا المقاطيع للالتزام حسب التقديرات الجديدة، امتنع الزراع عن التزامها. فكتبت للولاية لإرسال ملتزمين من بغداد ليقوموا بالتقدير من جديد، وقبل الاطلاع على تقديراتنا. فأرسلت الولاية ثلاث هيئات كانت تقديراتها تفوق ما توصلنا إليه، واتفقنا مع هذه الهيئات على تقديرات منصفة وعرضنا المقاطعات بالمزايدة العلنية في مركز الصويرة، فبلغت

حصة الخزينة من الالتزامات الجديدة ستة عشر ألف ليرة ذهبية.

وأثناء جولاتنا للتقدير، قضينا ليلتين في العزيزية من غير نوم، وكانت محاطة بمياه الفيضان الراكدة، وكثر فيها البعوض؛ فكان علينا أن نجلس في العراء تحت أشعة الشمس المحرقة. كما كانت الحيوانات تترك إصطبلاتها ليلاً إلى المحلات المرتفعة تفاديًا للبعوض. وفي العزيزية وردتنا الكثير من الشكاوى، وأمرٌ من الولاية للتحري عن أسبابها، وبعد التحقيق طلبت تنحية قائد الجندرمة وآمر الشرطة لأعمالهما السيئة.

## العثمانيون يوزعون الأراضي في أيامهم الأخيرة

وردني كتاب من الوالي زكي باشا يعلمني فيه عزم الوزارة على توزيع الأراضي في العراق على أهاليها ببدل زهيد، وأنه يرتئي تطبيق ذلك في قضاء الصويرة أولاً كنموذج للمناطق الأخرى، وطلب مني تقديم مقترحات عن أسلوب التطبيق عمليًا. وعليه، شكّلت لجنة برئاستي وبعضوية اثنين من المهندسين وممثل عن الولاية، واتخذنا من أراضي (الرحيبية) و(الطويل)

نموذجًا لتنفيذ القرار. وبالتداول والاتفاق مع رؤساء وسراكيل الزبيد، فوضنا هذه الأراضي لزارعيها ببدل اسمي هو عشرة قروش فقط لكل (دونم) بشرط أن يزرعوا الأشجار على حدود أراضيهم، وأن يسجلوا أسماءهم في دائرة النفوس، وأن يقبلوا بتطبيق قانون التجنيد العام عليهم، وأن يقوموا ببناء القرى والمساجد في مناطقهم.

ونظمنا استمارات وتعهدات صادقت عليها الولاية، وأرسلناها إلى إسطنبول للموافقة عليها. إلا أن المشروع توقف عند اندلاع الحرب العامة، ولا زلت محتفظًا بمسودة قرار توزيع الأراضي حتى الآن.

## الأيام الأخيرة

بعد مرور ثلاث سنوات في القضاء، تلقيت برقية رمزية من الوالي جمال باشا يسألني فيها إن كنت موافقًا على نقلي إلى قضاء الكاظمية، وأجبته بالموافقة. وعند إرسال الأوراق إلى إسطنبول، سقطت الوزارة هناك ونقل جمال باشا من بغداد وحل محله زكي باشا. أكد الوالي الجديد على مقترح الوالي السابق، وعند ورود الجواب من إسطنبول كان اسمي

قد أبدل. وظهر لنا أن ذلك كان نتيجة تلاعب وتزوير مرافق الوالي للكتاب. وعلم زكي باشا بهذا، ففصل مرافقه وأخذ مفتاح الشفرة منه.

# الفصل السابع
# في السماوة للمرة الثانية

## عودة إلى القتال

لم تطل ولاية الوالي المشير زكي باشا، وحل محله حسين جلال بك(1) عام 1913. طلبني الوالي الجديد للذهاب إلى السماوة مرة أخرى لمصاحبة الجيش المقرر إرساله لتأديب العشائر، والقبض على طفار النعمة الذي أخذ يعبث بالأمن والاستقرار. اعتذرت في وقتها عن قبول هذه المهمة، وطلبت من قائد (الأوردي)، محمد فاضل باشا الداغستاني، إقناع الوالي بقبول اعتذاري.

كان طفار النعمة ذكيًا ونشطًا، يقيم في القسم الشرقي وله فيه أتباع كثيرون، من ضمنهم بعض الموظفين المستفيدين منه ماديًا أو من الذين يخافونه ويخشون دسائسه. وكانت له دوافع كثيرة لإثارة الفتن بين الشرقيين والغربيين، منها استفادته ماديًا بحصوله على (دية) القتلى والجرحى من ضحايا القتال. وسبق لطفار أن سجن في بغداد سنتين

بسبب ذلك، فآلت زعامة الشرقيين أثناء سجنه إلى اثنين من المسنين هما عبد الله الشاهر وصبار الحسين، ثم أطلق سراحه في زمن خلفي القائم مقام، سلطان الجبوري، الملقب (بأبي الزهدي)(2).

وما كاد طفار يخرج من السجن حتى عاد إلى سيرته الأولى، واندلع القتال بين الغربيين والشرقيين مرة أخرى وعادت السماوة إلى حالتها القديمة. فأرسلت ولاية بغداد قوة عسكرية كبيرة قوامها أربعة أفواج، بقيادة ثابت بك الكروي(3)، وكان من ضمنها أيضًا (البمباشي) الحاجرمزي، وعززت هذه القوة بالسياسي ناجي السويدي(4)، قائم مقام قضاء الهندية.

قام السويدي بإقناع الأهالي بالمحافظة على الأمن، وأنذرهم باستعمال القوة ضد كل من يثير أعمال الشغب. وبعد أن أكمل واجبه، رجع إلى مقر وظيفته تاركًا القوة العسكرية تتربص بطفار النعمة للقبض عليه في الوقت المناسب.

ولم ترق لطفار سياسة السويدي السلمية وتوقف القتال، وأخذ يخطط لفكرة تنقذه من هذا المأزق،

فتفتق ذهنه عن حيلة ماكرة أدى تنفيذها إلى وقوع خسائر كبيرة في القوات المسلحة، وإلى تنحية الكثير من القادة ورجال الإدارة من مناصبهم.

بدأ طفار، الذي اعتاد الاصطياد في المياه العكرة، ببث الشكوك بين أفراد العشائر، وأقنع عشيرة (البو جياش) بأن الجيش قد أرسل لمباغتتهم وضربهم.

وصار يترصد هو حركات القطعات عند ذهابها صباح كل يوم إلى ساحات التدريب وهي مطمئنة لصفاء الجو وهدوء الحالة الأمنية، وأوعز إلى أربعة من أتباعه بالاختفاء في نهر (السوير) المجاور لساحة التدريب. وعند وصول أفراد الجيش، باغتهم المسلحون الأربعة بإطلاق النار، وأسرع الجنود إلى مشاجب السلاح وردوا عليهم. وسمعت عشيرة (ألبو جياش) دوي الرصاص وظنت أن الجيش يهاجمها، فهب رجالها للدفاع عن أنفسهم، وانضمت إليهم عشيرة (الزياد)، واحتدم القتال حتى غروب الشمس. واستنفد الجيش عتاده واضطر للانسحاب من أرض المعركة تحت جنح الظلام، تاركًا وراءه أربعة عشر قتيلاً وبعض الخيول وكمية كبيرة من السلاح ومدفعًا

واحدًا.

## الرجوع الى السماوة

مر شهران على تعيين جاويد باشا(5) خلفًا لحسين جلال بك، ووصلتني برقية منه تتضمن إرادة سنية بتعييني قائم مقام للسماوة للمرة الثانية. وتركت الصويرة في 13 نيسان 1914 عازمًا على تقديم استقالتي، فقد تحملت الكثير من المتاعب والمشاق أثناء عملي السابق ومن غير المعقول أن أكلف بهذه المهمة ثانيةً.

استقبلني الوالي استقبالاً حارًا وأجلسني إلى يمينه، وقال: (منذ وصولي بغداد وأنا أبحث عن شخص كفءٍ يليق بقضاء السماوة التي افتقرت إلى الأمن والإدارة الحازمة، وأرشدوني إليك لأنك نجحت في إدارة هذا القضاء واستقر الأمن في عهدك) أجبته: (إني كنت أفكر بالاستقالة إلا أن الرعاية التي تحيطني بها جعلتني أعيد النظر في موقفي) ثم بينت له أهمية القضاء وحاجته إلى إدارة حازمة بصلاحيات واسعة بعد وضع تشريعات جديدة، ووعدته بتقديم تقرير عن المشكلات المستعجلة وكيفية

التعامل معها. أجابني جاويد باشا: بأنه مخول من إسطنبول بصلاحيات كبيرة، وأنه كان يفكر بتعييني متصرفًا للديوانية على أن يلحق السماوة بي، إلا أنه تبلغ حديثًا بإرادة سنية بتعيين عزت بك متصرفًا لها وهو الآن في طريقه إليها، والوقت قد فات عليه لتنفيذ رغبته.

قدمت بعد ذلك تقريرًا مفصلاً للوالي يتضمن المتطلبات التي وجدتها مناسبة، ومنها اتخاذ السماوة مقرًا لمائة جندي من المشاة ومائة من الخيالة تحت قيادة كفوءة ونزيهة متعاونة مع الإدارة. واقترحت العفو العام عن المحكومين من قبل محكمة السماوة، على أن تنفذ محكومياتهم عند تكرار أعمالهم المخلة بالأمن. وطلبت عزل أو نقل الموظفين الذين انحازوا إلى الشرقيين أو الغربيين، أو الذين قاموا بأعمال سيئة أخرى. كما طالبت بتعيين رجل قدير من رؤساء العشائر لمرافقة القوة العسكرية عند جبايتها الضرائب، على أن تخصص له نسبة معقولة من الواردات مكافأة له. واقترحت نفي بعض الأفراد الذين تكررت أعمالهم التخريبية. وطالبت بمنع

المشروبات الروحية، ونفي المومسات من السماوة.
وأخيرًا أوصيت بعدم تدخل متصرف الديوانية عند تنفيذي هذه الصلاحيات الاستثنائية.
قرأ الوالي مقترحاتي بإمعان واستحسنها وكتب الشرح اللازم عليها، وقال: (تأكد لي الآن أنك ستتمكن من إصلاح الحالة في السماوة، وإني أخولك العمل بهذه المقترحات وتنفيذها، وحتى تطبيقها على بقية لواء الديوانية إن وجدت ذلك ضروريًا. وعليك الاتصال بالولاية مباشرةً إضافةً إلى ارتباطك بمقر اللواء. أتمنى لك التوفيق والنجاح)
وبهذا الجواب لم يترك لي الوالي مجالاً للاعتذار والتخلص من هذه المسؤولية الصعبة، واستسلمت للأمر الواقع وفوضت أمري إلى الله. أجبت الوالي: (بناء على توجيهاتكم هذه لم يبق لي مجال للاعتذار وستجدونني عند حسن ظنكم)
قال جاويد باشا: إنه مستعد لإرسال فوجين من الجيش إلى السماوة إضافة إلى الفوجين الموجودين فيها. أجبته: بأني لست بحاجة لهذه الأفواج ولم أعتد العمل مع جيش كبير بهذا العدد، وأنا أفضل وجود

فوج واحد فقط في القضاء، وأقترح نقل الفوج الثاني إلى موقع آخر. وطلبت منه أن يأمر بإرسال زورق مصفح كالذي هو مستعمل في بغداد للمساعدة في جباية الضرائب، وللمحافظة على الأمن خارج السماوة، كما طلبت منه قائمة بما فقده الجيش في القتال الأخير لإرجاعها.

قام الوالي وقبلني، واتصل برئيس أركان الجيش، رشيد الخوجه(6)، وطلب منه تزويدي بقوائم الخسائر، والإيعاز إلى قائد البحرية في البصرة لتزويدي بالزورق المسلح.

قلت للوالي: (إن رعايتكم تشجعني على الإكثار من طلباتي، ولي طلبٌ شخصي، فأني لا أزال في الدرجة الثانية قي القائم مقامية وأستحق الترفيع) أجابني: (هل من المعقول أن يتقاضى قائم مقام الهندية راتب الدرجة الأولى وهو بلا عمل وتعب، شغله الوحيد تدخين (النركيلة)، وقائم مقام السماوة أم المشاكل في الدرجة الثانية؟)، ثم ناولني ورقة بيضاء وطلب مني أن أكتب عليها طلبي، وأرسله إلى إسطنبول بعد أن كتب عليه هامشًا كله إطراء وثناء.

سافرت إلى السماوة على الطريق نفسه، الذي سلكته في المرة الأولى ووصلتها في 6 أيار 1914، وكان في استقبالي هناك جميع الموظفين والمحبين ووجوه القضاء، وباشرت العمل في اليوم التالي.

# إعادة الأمن والاستقرار

بدأت أولاً بالتحري عن أسباب القتال وما لحق بالدولة من خسائر، فتبين أن الذين اشتركوا في القتال هم:عشائر(الشنايرة) و(الزويد) و(البوجراد) من عشيرة (البو جياش) و(الرواشة) و(البو حمد) و(البلحة) من عشيرة (الزياد). كتبت لرؤساء هذه العشائر مطالبًا بإعادة ما سلبوه من الجيش وأنذرتهم بعواقب وخيمة إذا ما امتنعوا عن ذلك. واستجاب جميعهم ووعدوا بتسليم ما لديهم إذا ما أعطيتهم الأمان، وبدأوا يتوافدون على المدينة ومعهم ما غنموه من أسلحة ودواب ومعدات عسكرية. وكنت أزود الولاية بأخبارهم يومًا بيوم حتى انتهت عملية الاسترجا ع بصورة كاملة في عشرين يومًا . ثم أخذ رؤساء العشائر بعد ذلك يترددون على السماوة بحرية واطمئنان. وتسلمت شكرًا من الولاية لاستقرار الأمن والسلام، وسحبت أحد الأفواج تنفيذًا لطلبي وبقي فوج واحد. ووصلني الزورق الحربي المزود بمدفع واحد من البصرة بعد ثلاثين يومًا ، وأخذت أتجول فيه بنهر الفرات، وكان له أثر معنوي جيد على سكان

القضاء والعشائر.

المتصرف والإدارة الجديدة

انتهيت من قضية النزاع مع العشائر، وشرعت بإصلاح الجهاز الإداري ففصلت بعض الموظفين لسوء سلوكهم، وأقفلت محلات بيع الخمور وأبعدت المومسات إلى الناصرية.

واحتج عزة بك، متصرف الديوانية الجديد، على أعمالي باعتبارها مغايرة للقوانين السائدة. فأجبته: بأني مخول بصلاحيات خاصة من الوالي، وسأستمر بتنفيذ ما أراه صائبًا مهما كلفني الأمر. وأخبرت الولاية بهذا الخلاف، فأوعزت الولاية إلى عزة بك بعدم التدخل، ومن يومها صار يؤيد أعمالي ويبدي رضاه.

قتال بين أخ وأخيه

احتدم قتال شديد بين (معجون الحمادي) رئيس (الصفران) وأخيه (ملاجي) اضطرني للسفر إلى مضارب العشيرة لإخماد الفتنة. أبحرت في نهر (كريم) مستخدمًا الزورق المسلح ومنه إلى الهور حيث تقيم العشيرة. وعند توسطنا الهور غرز الزورق في

قاعه الطيني فتعاونا على دفعه حتى أخذ يزحف ببطء وتفادينا بذلك عطل الزورق وتوقفه الكامل. وتمكنا من الوصول إلى الساحل الذي يقيم عليه المتقاتلون الذين كانت صفوفهم يقابل بعضها بعضًا. كانت جماعة معجون الحمادين، وعددهم يزيد على الألف رجل، يحاصرون (المفتول)(7) لمدة ثلاثة أيام، وفي داخله ملاجىء مع سبعة من رفاقه وهم يعانون الجوع والعطش. وأصدرت الأوامر لأربعة من الجنود باتخاذ موقعٍ بين (المفتول) وبيننا، فتمكنا من إخراج المحاصرين وحمايتهم في الزورق من غير أن نقدم خسائر. وعند الغروب، طلبت من الربان الابتعاد عن الساحل حفاظًا على حياة الموجودين معنا. وتناولنا العشاء سويةً وكلنا حذرون من الجموع الكبيرة المحتشدة على الساحل، وتحركنا عند مطلع الفجر باتجاه نهر(السوير) ومنه إلى الفرات.

وعند وصولنا السماوة، وجدنا أن الإشاعات قد سبقتنا، والرعب والخوف قد انتشرا بين مثيري الشغب، من زورقنا المسلح العجيب الذي يزحف على الطين.

جباية ضرائب ورسوم الدولة

أخذت الزورق المسلح مرة أخرى بعد ثلاثة أيام في جولة إلى الرميثة(8) لجباية الرسوم من العشائر. وفي نهر (السوير) بالقرب من مصب نهر الرميثة، غرز الزورق مرة أخرى في قاعه الطينية، وأكملنا سفرتنا على ظهور خيل زودنا بها ساجت الثويني أحد رؤساء (الظوالم).وفي الرميثة، طلبت حضور رؤساء (البو حسان) و(بني زريج) و(الخزاعل) و(الأعاجيب) و(الظوالم)، واجتمعت عصر اليوم التالي بهم في (الحسينية)، وأبديت لهم النصح بالالتزام بإطاعة القوانين ودفع ما بذمتهم من الضرائب. تكلم شعلان أبو الجون(9)، وقال: إنهم موافقون على الجباية وهم يستفيدون من ذلك، لكن هذا يتطلب وجود قوة عسكرية حكومية تساعدهم على إجبار المكلفين بدفع ما عليهم.

أزعجني هذا الكلام كثيرًا ، وأجبته بتهكم: بأن طربوشي وحده هو الحكومة، وسأجمع الضرائب بنفسي عند الضرورة وطلبت منه ترك الاجتماع. وبعد قليل بدأت أفكر فيما قلته والشدة التي أبديتها،

وراودتني الشكوك في إمكاني تنفيذ ما قلته عمليًا.
بدأت أولاً باستدعاء (علي العبد الله) رئيس عشائر (البو حسان)ـ النصيفة الشمالية، وطلبت منه أن يدفع ما في ذمته وأن يكون قدوةً لغيره، وهددت بترئيس غريمه وابن عمه (شلتاغ) ابن الرئيس السابق عوضًا عنه، فاستجاب ودفع إلى الجابي خمس عشرة ليرة ذهبية. وسمع ناصر الحسين رئيس النصيفة الثانية ل(البو حسان) بما حدث؛ فجاء طائعا ودفع خمس عشرة ليرة أخرى. عند ذاك فقط شعرت بارتياح تام ونمت ليلتي مطمئنًا.

وفي اليوم التالي، استدعيت عبد العباس الفرهود رئيس (بني زريج) واستحصلت منه على عشرين ليرة. وعند المساء، زرت هذا الشيخ وشكرته أمام الرؤساء الآخرين؛ فتسابق بعد ذلك ما بقي من الشيوخ لدفع ما بذمتهم من الضرائب، راغبين في إرضاء الحكومة حتى بلغ ما جمعناه ذلك اليوم ستمائة ليرة ذهبية.

وفي اليوم الثالث، جاءني شعلان أبو الجون معتذرًا عما قاله في الحسينية وطلب مني الذهاب معه إلى

مقر عشيرته. وهناك راقبته عن كثب كيف كان ينادي أفراد عشيرته فردًا فردًا ليحصل الديون منهم. وبعد يومين، حل شهر رمضان، فضيفني لبضعة أيام تمتعت أثناءها بحكاياته الممتعة وأمثاله العامية وأحاديثه الشيقة.

وفي السادس من رمضان، أي: في 28 تموز 1914، وردت لي برقيات ورسائل رسمية تخبرني بنشوب الحرب العالمية في أوربا ، وبإعلان الدولة العثمانية النفير العام. فأسرعت بالرجوع إلى السماوة لمواكبة هذه التطورات الخطيرة.

# الهوامش

(1) الجراديغ: المفرد جرداغ، كلمة غير عربية، وهي غرف تتكون من أعمدة الخشب لها سقف من الحصير وكذلك جوانب الغرفة، يتم إنشاؤها في الصيف على شواطىء دجلة، ويتخذها أصحابها محلات للابتعاد عن الجو الحار، وكذلك للتسلية والطرب.

(1) بدأ عبد العزيز القصاب بتسجيل مذكراته في صيف 1953 عندما كان في لندن للمعالجة الجراحية.

(1) درع الجشعمي: شيخ عشائر (جشعم) التي سكنت جنوب العراق ورعى أفرادها الإبل والأغنام وعمل قسم منهم في الزراعة.

يوسف العزاوي (عشائر العراق) طبعة 1334 هـ، وشيخ إبراهيم الراوي الرفاعي (بلوغ الأرب) طبعة 1330هـ - بيروت.

(2) والأخ السادس هو عبد العزيز، كاتب هذه المذكرات، وهو أصغر إخوته. أعقب ثلاثة أولاد

وابنتين.

(3) كانت هذه الدار مجاورة لدار عبد المحسن السعدون وتبعد قليلا عن الباب الشرقي.

(4) تمكن كاتب المذكرات، ولأول مرة، من بناء أول دار ملك له عام 1939، بعد أن تبوأ جميع مناصبه الإدارية والوزارية وأشرف على التقاعد.

(5) صلاّبة: خشبة على شكل صليب.

(6) الفلقة أو الفلق: خشبة تشد عليها أقدام الطالب لضربها.

(7) الخلفة أو الخليفة: وهو الذي ينوب عن الملا.

(8) الرحلة: خشبة تشبه السرج لوضع الكتاب عليها

(9) مدحة باشا: من أبرز ولاة بغداد (1869-1872)، له أعمال كثيرة ومهمة. كان نزيهًا دؤوبًا ومحبًا للإصلاح، متأثرًا بثقافة أوربية حديثة. أسس مستشفى الغرباء بجانب الكرخ والتي أصبحت مقرًا للمجلس التأسيسي العراقي (1924). وسمي بأبي الأحرار لدوره في إعلانالدستور العثماني. توفي في ظروف غامضة في مدينة الطائف بالسرطان وأشيع أنه مات مسمومًا.

(10) القائم مقام العسكري: العقيد.

(11) الأستانة: عاصمة الخلافة العثمانية وكان لها أسماء أخرى مثل: القسطنطينية، وإسطنبول أو إستانبول. وبعد انحلال الإمبراطورية العثمانية وقيام الجمهورية التركية الحديثة اتخذت مدينة أنقرة عاصمةً لها.

(1) المكاري: صاحب الدواب المستعملة للسفر (مجازي) بالعامية البغدادية.

(2) العكام: من يقوم بإعداد الطعام للقافلة والإشراف على شؤونها الأخرى.

(3) الوشاش: نهر عباسي قديم وسمي بنهر الخر أيضًا وهو ضمن بغداد حاليًا.

(4) أبو منيصير: وفيه خان (النص) أي منتصف الطريق إلى الفلوجة، ويبعد 30 كيلومترًا غرب بغداد.

(5) الفلوجة: مدينة على الفرات على بعد 65 كيلومترًا غرب بغداد، يرجع تأريخها إلى العهد السومري.

(6) الرمادي: مركز محافظة الأنبار، 110 كيلو مترات غرب بغداد، أسسها مدحة باشا.

(7) العتابات: أسلوب من الغناء العراقي التراثي،

يغلب عليه الحزن.

(8) المني Limnos.

(9) مدللي Mytilinos.

(10) ساقز Samos.

(11) جمبرلي طاش: محلة في إسطنبول القديمة قرب جامع بايزيد والعمود البيزنطي.

(12) المفتي الاي: رتبة عسكرية دينية.

(13) السركجي: محلة بالقرب من قلعة توب كابي فيها محطة رئيسة للقطار ومرفأ.

(14) آق سراي: محلة القصر الأبيض وتقع قرب جامعة إسطنبول الحالية.

(15) راجع نص الرسالة في الصفحة 203 (الملحق رقم 6).

(16) سليمان بن نصر الله بن محمد بن شفاعة بن خلف بن غافل الجبوري، وهو خال والدة كاتب المذكرات.

(17) الباب العالي: بلاط السلطان في إسطنبول.

(18) الروم أيلي: المنطقة الأوربية من السلطنة العثمانية.

(19) الأناضول: شبه جزيرة آسيا الصغرى.

(20) المدرسة الملكية الشاهانية: كلية رفيعة المستوى تجمع بين السياسة والقانون والإدارة.

(21) النظارة: الوزارة في إسطنبول.

(22) قادرغة: محلة في وسط إسطنبول القديمة يخترقها شارع ديوان يولي الرئيس.

(23) روميًا: أوربيًا.

(24) ديوان يولي: الشارع الرئيس في إسطنبول القديمة، يرجع تاريخه إلى العصر الروماني، ويبدأ من قلعة توب كابي ويمر بساحة بايزيد وجامعة إسطنبول، وينتهي بباب توب كابي في السور غرب المدينة (باب المدافع) وهناك يتصل بالطريق الدولي القديم إلى أوروبا. وعلى هذا الشارع تقع معظم الدوائر الرسمية المهمة.

(25) لاللي: محلة بالقرب من موقع جامعة إسطنبول الحالية.

(26) قوم قبو: محلة من إسطنبول القديمة المطلة على بحر مرمرة.

(27) يلدز: (وتعني النجم بالتركية) وهو موضع قصور

سلطانية متعددة على قمة تل يشرف على البوسفور وعلى قصر جراغان، محاطة بحدائق واسعة. طور هذه القصور وأضاف عليها السلطان عبد الحميد الثاني (1876-1909).

(28) جراغان: قصر منيف على ساحل البوسفور، بناه السلطان عبد العزيز (1861-1876)، يبعد عن دولمة بغجة بكيلومتر واحد. بناه المهندس (بالايان) أيضًا، واحترق في بداية القرن. أعيد بناؤه حديثًا ليصبح أكبر فندق في إسطنبول وأحسنها.

(29) الأرمن والدولة العثمانية: اندلعت في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين عدة ثورات أرمنية، ذات طابع قومي في شرق الأناضول. وقام مثلها وعلى نطاق أبسط، الآثوريون والأكراد، وقامت ثورات مماثلة ضد الإمبراطورية الروسية من قبل الجاجان والداغستان والجركس في ققفاسيا. وكانت جميع هذه الحركات موضع اهتمام وتشجيع من الدول المحيطة بالمنطقة وخارجها، أدت إلى مآس إنسانية كبيرة وهجرة وتشتت سكان هذه المناطق، أهمها ما أصاب الأرمن إبان الحرب العظمى الأولى.

(30) غلطة سراي: محلة تقع على الساحل الشمالي للقرن الذهبي، فيها فنار لتوجيه الملاحة بني في عصر مملكة بيزا الإيطالية. والمحلة خاصة بالمسيحيين من بقايا الإمبراطورية البيزنطية. وهي على رأس جسر غلطة :Galata.

(31) الفراش: الآذن.

(32) قسطموني: Kastmonu مدينة تركية جنوبي البحر الأسود، فيها قلعة بيزنطية.

(33) أدرنة: اسمها القديم (هادريان بولس) على اسم الامبروطور البريطاني هادريان، والمدينة تقع على الحدود التركية-البلغارية.

(34) الدفتر دار: مدير الحسابات وهي مكونة من كلمتين دفتر العربية ودار الأعجمية بمعنى صاحب.

(35) سليم الأول: تاسع سلاطين آل عثمان، اشتهر باسم (ياوز سلطان سليم). دحر جيش إسماعيل الصفوي في إيران. ثم دحر السلطان (طومان باي) سلطان المماليك في مصر، فنزل له الخليفة محمد المتوكل على الله الثالث عن الخلافة. و(ياوز) كلمة تركية معناها الشجاع.

(36) ايا صوفيا: كاتدرائية (حاجيا صوفيا) أو الحكمة المقدسة، وكانت أكبر كنيسة في العالم المسيحي في القرن السادس. بنيت قبل كنيسة القديس بطرس في روما بألف عام. كان لدخول فرسان السلطان محمد الفاتح فيها أثر تاريخي كبير.

(1) المجيدي: قطعة نقود عثمانية فضية تساوي في عملتنا العراقية اليوم مائتي فلس.

(2) التختروان: المحمل أو الهودج أو المحفة.

(3) عبد الوهاب باشا الأرناؤوطي: والي بغداد 1904-1905 ألباني الأصل، كان قبل ذلك واليًا في الموصل.

(4) اللواء: المحافظة.

(5) سري باشا: والي بغداد 1889 أقام سدة (السرية) على الجانب الشرقي من الفرات. وفي سنة 1900، وبأمر من السلطان عبد الحميد، أنشأ سدًا بسيطًا على شط الهندية لدفع المياه إلى شط الحلة، بإشراف المهندسين الفرنسيين (شوندوفير) و(ديووان)، واستعمل لبناء هذا السد، طابوق من برج

بابل. وأهمل السد في عام 1909 عندما باشر المهندس (وليم ويلكوكس) ببناء سدة جديدة بشكل أفضل.

([1](#)) أبو بكر حازم بك: والي بغداد 1907-1908 وقت إعلان الدستور. اختلف مع ناظم باشا رئيس الهيئة الإصلاحية واستقال.

([2](#)) احتفظ صاحب المذكرات بلحيته طيلة حياته منذ ذلك الوقت.

([3](#)) مرقد الأئمة في سامراء: علي الهادي (الإمام العاشر) وحسن العسكري (الحادي عشر) والمهدي (الثاني عشر) (ع).

([4](#)) الجندرمة: قوات الشرطة العسكرية (الدرك) والكلمة فرنسية الأصل: Gendarme.

([5](#)) القران يساوي عشرين فلسا.

([6](#)) اليوز باشي: اسم مركب من (يوز) بمعنى مئة بالتركية و(باش) بمعنى رأس، أي: رئيس مائة من الجند وتعادل رتبة النقيب.

([7](#)) ناظم باشا: رئيس الهيئة الإصلاحية التي أرسلت إلى بغداد قبل إعلان الدستور، وهو غير الفريق

حسين ناظم باشا والي بغداد 1910-1911·
استدعي إلى إسطنبول وأصبح وزيرا بعد الحركة الرجعية واقتحام كتائب حامية اسطنبول للبرلمان في 13 نيسان 1909· وعلى أثر ذلك تحرك محمود شوكة باشا من سالونيك ودخل القسطنطينية في 24 نيسان 1909 ، وقتل ناظم باشا مع الأمير الدرزي محمد أرسلان، النائب العربي· وخلع مجلس الأعيان والنواب، السلطان عبد الحميد الثاني، ونصبوا بدلاً منه أخاه محمد رشاد في 27 نيسان 1909·

(8) البكباشي: رتبة عسكرية تعادل رتبة مقدم· وهي مكونة من (بيك) بمعنى ألف وتقرأ الكاف نونًا ، ومن (باش) بمعنى رأس وهو رئيس ألف من الجند·

(9) الطار: الشرفة·

(10) أبو الهدى الصيادي: 1849-1909 شيح رفاعي من حلب اعجبَ به السلطان عبد الحميد لأعماله الخارقة كالضرب بالسيوف واللعب بالنار، واعتبرها من كرامات الأولياء، أمر له بقصر فخم أصبح منتدى لأعيان إسطنبول وصار السلطان يستشيره في مشاكله·

(11) توفيت زوجته الأولى (نوريه) عندما قلع سنها المتطبب الوحيد في سامراء الحلاق فهد، وهي حامل في شهرها السابع.

(12) الجمعية المحمدية: تألفت في بغداد وكان أعضاؤها من الوجهاء ورجال الدين الذين لم يستسيغوا اندفاع الاتحاديين العنصري واللا ديني، وسميت أيضًا بجمعية (المشور).

(1) نجم الدين منلا: والي بغداد 1908-1909 استلم الولاية من محمد فاضل باشا الداغستاني واستدعي لتولي وزارة العدل في إسطنبول عند نهاية ولايته..

(2) محمد فاضل باشا الداغستاني: قائدٌ شجاعٌ من أعاظم الرجال تسلم وكالة ولاية بغداد عدة مرات وقاد المجاهدين وقاتل الإنكليز في عربستان. استشهد في معارك حصار الكوت في 6 جمادي الأولى 4331هـ 5191م. وهو في الأصل من الجاجان في قفقاسيا، رباه ورعاه الشيخ شامل الثائر الباسل ضد هيمنة القياصرة الروس مع ابنه غازي محمد. التجأ الاثنان بعد القضاء على ثورة الإمام شامل إلى بلاط السلطان عبدالحميد وعُيِّن هناك في حماية السلطان،

أبعده عبدالحميد إلى بغداد خوفاً من شجاعته.
احتفظ في بيته في بغداد في منطقة باب المعظم بحديقة تضم مختلف الحيوانات الضارية.

(3) المسيب: قضاء من أقضية محافظة كربلاء، يقع على الفرات قبل تفرعه إلى شط الحلة والهندية، يبعد 62 كم جنوب غربي بغداد.

(4) الكوفة: من أهم المدن الأسلامية في صدر الإسلام، أسست سنة 17هـ على الجانب الأيمن لنهر الكوفة، وهي تبعد عن النجف 10كيلومترات وينسب إليها الخط الكوفي، وكانت منافسة للبصرة في النحو والفقه واللغة، وهي اليوم مركز قضاء تابع لمحافظة النجف.

(5) الشامية: مدينة قائمة على الضفة اليسرى من نهر الشامية (من فروع الفرات) وهي تبعد عن الديوانية 25 ميلاً، وكانت تعرف باسم الحميدية في عهد السلطان عبد الحميد. وكانت تسمى أيضًا أم البعرور.

(6) الدوافيع: المكلفون بدفع الزورق.

(7) الديوانية: مدينة تقع على الجهة اليسرى من نهر

الفرات، وقيل إن سبب تسميتها يعود إلى أنها كانت دار ضيافة للخزاعل، وقد شيد أول بيت حجري فيها سنة 1271هـ واتخذوه دارًا للضيافة، أي (ديوان). وفي رأي آخر سميت الديوانية لأن أراضيها كانت ملكًا لديوان السلطان.وهي مركز محافظة القادسية الآن.

(8) الهور والأهوار: مسطحات مائية كبيرة جنوب العراق، أكثرها ماء عذب من دجلة والفرات، تتوسطها جزر صغيرة وكثيرة من صنع سكانها الذين يعيشون على صيد الأسماك وتربية الأبقار والجاموس.

تأريخها قديم يرجع إلى بداية الحضارة في عصور ما قبل التاريخ.

(9) القشلة أو القشلاق: هو مكان إقامة العسكر ويقابله في العربية الثُكنة.

(10) القنفة: الأريكة. وأصلها من الفرنسية Canape.

(11) الأوردي: جحفل من الجيش، أصلها من الأوردو.

الأوردو:هي لهجة او لغة بعض مناطق باكستان وهي

خليط من العربية والفارسية والبشتو، تكونت نتيجة اختلاط افراد الجيش الذين هم من قوميات متعددة، خليط من العرب والفرس والبشتو، وقد كون هذا الخليط من البشر خليطاً من الكلمات صارت تسمى لغة الأوردو.

(12) نامق باشا الكبير: تولى ولاية بغداد مرتين، الأولى في 1851-1852، والثانية في 1861-1867.

(13) سراكيل جمع سركال: وتعني وكيل مالك الأرض في زراعتها، وهي كلمة أعجمية أصلها (سركار) أي رئيس العمال.

(14) الدية: التعويض عن القتل ومعناها الشرعي: المال بدل النفس.

(15) باد شاهي: السلطان العظيم.

(16) الكرود جمع كرد: وهي بئر على فوهتها دولاب أفقي يديره حيوان، وهو أسلوب متبع بكثرة لإسقاء البساتين في العراق، ومنه كلمة كرادة.

(17) دوس الحبوب: دراسة الحبوب.

(18) المراوح جمع مرواح: وهو الذي يستعمل في ذر الحبوب.

(19) قول أغاسي: رتبة عسكرية مساوية رتبة رائد أو وكيل قائد.

(20) ناظم باشا: الفريق حسين ناظم باشا والي بغداد 1910-1911، كرجي الأصل لقب بمدحة الثاني لإصلاحاته الكثيرة. فتح شارع النهر (أول شارع في بغداد) وأقام سدة في شرق المدينة سميت باسمه، ودفن الخندق وأسس غرفة تجارة بغداد. استتب الأمن في زمانه. عين وزيرًا للدفاع في وزارة كامل باشا الائتلافية (حزب الحرية والائتلاف)، وقتل في مظاهرة نظمها حزب الاتحاد والترقي المناوئ لها، ويقال إن الذي اغتاله هو أنور باشا. كان مصرعه في 24 شباط 1913 أثناء خروجه إلى المتظاهرين من شرفة الباب العالي، حيث كان مجلس الوزراء منعقدًا.

(21) بني حجيم: مجموعة كبيرة من العشائر تقطن المنطقة بين السماوة والرميثة إلى ناحية الخضر والدراجي جنوبًا. انطلقت منها الثورة العراقية 1920. وتصفها (مس بل) بأنها كانت مثالاً للتفكك القبائلي يقاتل بعضها بعضًا.

(22) الخلعة والكسوة: بزة الشرف.

(23) الدراجي: قرية على الضفة الشرقية من الفرات في منتصف المسافة بين السماوة والناصرية.

(24) المنتفك (المنتفق): اسم أطلق على اتحاد قبائل في الفرات الأوسط في القرن السابع عشر، ثم أطلق على محافظة ذي قار. (الناصرية في العهد الملكي).

(1) جفاف نهر الحلة: يتفرع الفرات جنوب المسيب إلى فرعين مهمين؛ أحدهما شط الهندية (أو شط الكوفة)، والثاني هو شط الحلة. أحال اسكندر المقدوني الماء إلى شط الحلة (شط بابل). وحفرت أميرة هندية جدولاً صغيرًا من شط الحلة إلى شط الكوفة في القرن السابع عشر، ولذا سميّ بشط الهندية. تكررت مشاكل جفاف نهر الحلة وتراكمه بالطمي فبنيت سدة الهندية في زمن الوالي سري باشا 1900-1902 ثم سدة قويمة أخرى 1911-1913 بناها (ولكوكس)، وسدة كونكريتية حديثة سنة 1986 لضمان تدفق المياه في شط الحلة.

(2) جمال باشا: والي بغداد 1911-1912 من غلاة

حزب الاتحاد والترقي، وصِفَ أنه ذو ثقافة عصرية. أصبح وزيرًا للبحرية ثم تسلم قيادة الجيش الرابع في دمشق وقام بهجوم فاشل على قناة السويس، وفي 14 كانون الثاني 1915 سمي بالسفاح لإعدامه رجال العرب الأحرار في ساحات بيروت ودمشق. اغتيل في 18 تموز 1921 في مدينة تفليس في القفقاس وهو في طريقه إلى أفغانستان بدعوة من أمان الله خان لتنظيم جيشه.

(3) العلوة: الأسواق الرئيسة.

(4) تهوس: تتظاهر وتهتف.

(5) البزايز: الأراضي البعيدة عن مصدر الأرواء.

(6) المشير زكي باشا: مشير الفيلق الرابع، تولى ولاية بغداد بعد جمال باشا 1912-3191. وهو من رجال الائتلاف. ومن آثاره دائرة البريد الرئيسة الواقعة حاليًا أمام المدرسة الثانوية المركزية.

(1) حسين جلال بك: والي بغداد سنة 1913 بعد أن كان واليًا لديار بكر، وعزل عن ولايته لبغداد بعد حوادث السماوة في السنة نفسها.

(2) الزهدي: نوع مبتذل من التمور.

(3) ثابت الكروي : والد الصحفي الهزلي نوري ثابت والسيدة شريفة حرم صاحب المذكرات في وقت لاحق.

(4) ناجي السويدي: من الساسة البارزين في العهد الملكي، ولد في بغداد عام 1882 وتوفي في منفاه في ( سلسبري) في أفريقيا، سنة 1942، تولى عدة مناصب وزارية ورأس الوزارة مرة واحدة من 18/12/1929 - 9/3/1930 وكان يلقب بفقيه الدستور.

(5) جاويد باشا: والي بغداد سنة 1913 وقائد الجيش العثماني، عزل عند سقوط البصرة سنة 1914 وتولى الولاية من بعده سليمان نظيف بك.

(6) رشيد الخوجة: ضابط تخرج في إسطنبول وتقلد مركز رئيس أركان الجيش العثماني في بغداد، وبعد الاحتلال عين متصرفًا لبغداد إلا أن المندوب السامي أوعز بإقالته في 5 أيلول 1922 لحذفه فقرات من مضبطة الاستفتاء العام لانتخاب الملك فيصل. تقلد منصب وزير الدفاع في الحكم الوطني. قام برسم خرائط مهمة عن بغداد قبل الحرب العظمى.

(7) المفتول : البرج الدفاعي الدائري في قلاع جنوب

العراق.

(8) الرميثة: وهي تبعد 40 كيلومتراً شمال السماوة وتقع على نهر الحلة، كانت تسمى قبلاً بالأبيض ومنها انطلقت الشرارة الأولى لثورة 30 حزيران 1920.

(9) شعلان أبو الجون: رئيس عشيرة (الظوالم)، ومن أبرز قادة ثورة العشرين، انتخب عضوًا في المجلس التأسيسي سنة 1924 ثم انتخب نائبًا في مجلس النواب. توفي في 29 كانون الثاني 1930.

و(الظوالم) عشيرة من ( بني حجيم) التي تسكن العوجة ما بين السماوة و الرميثة.